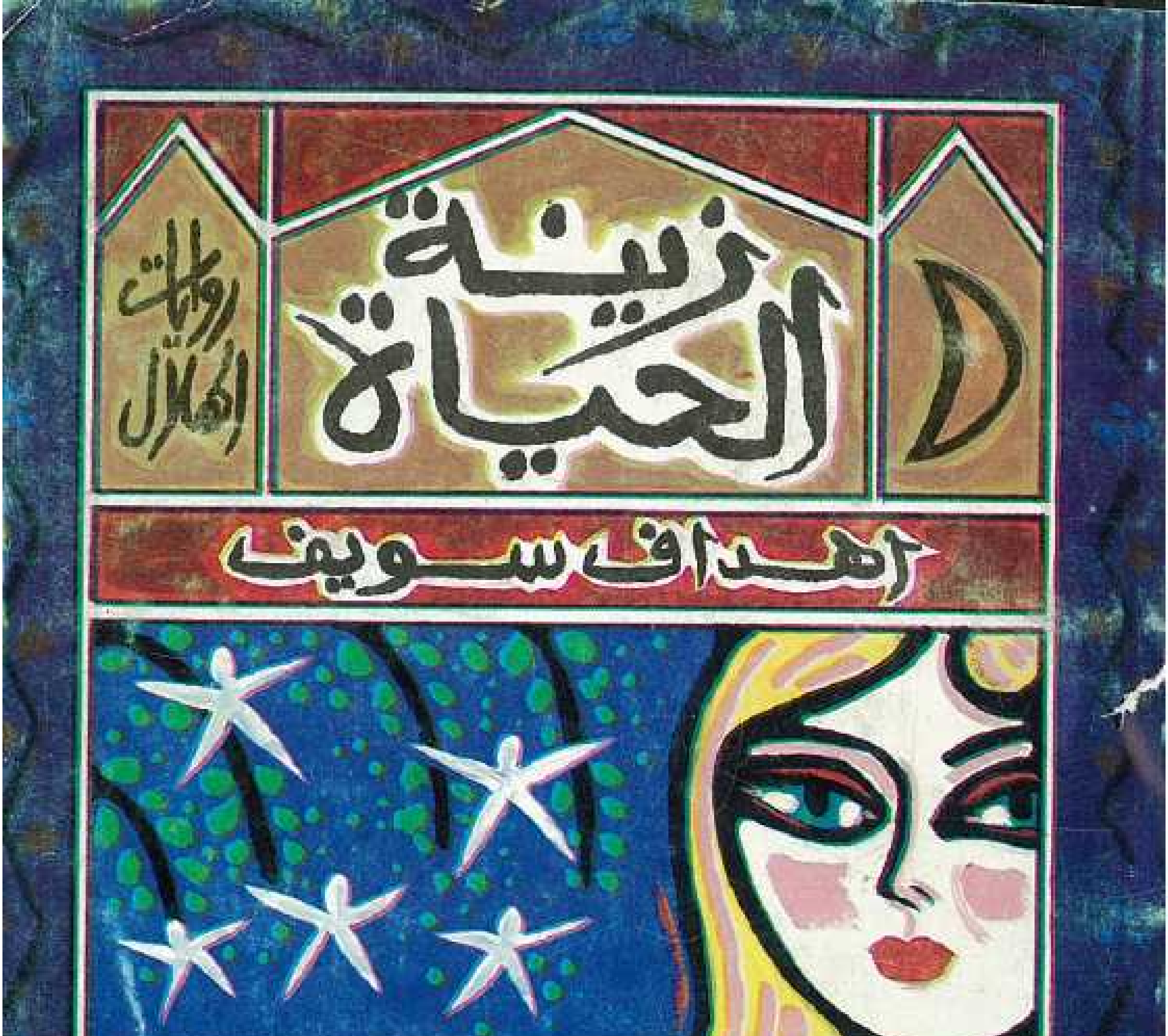

زينة الحياة
روايات الهلال
أهداف سويف
حلمي التوني 1996

زينة الحياة

بقلم

أهداف سويف

دار الهلال

الغلاف للفنان
حلمى التونى

قبل أن تقرأ

هناك حضور أنثوى مهيمن متعدد الأبعاد فى هذه المجموعة. ليس الحضور المباشر، الزاعق، المليء بشعارات النزعة النسوية التى تلوكها بعض المنتسبات إليها، على سبيل الموضة أو البحث عن الشهرة، وإنما الحضور الذى لايبين عن نفسه إلا من خلال موازيات رمزية، ومعادلات تقنية، وتمثيلات وصفية، وكولاجات بنائية، تنأى به عن الدفق المباشر للعواطف والتقديم الانفعالى للأفكار. يظهر ذلك على نحو خاص حين تبطىء براعة السرد من إيقاع الالتقاء بهذا الحضور، مسمرة العين على تفاصيل العناصر المتصاعدة للرؤية التى يتجسد بها، منتقشا على الصفحات بما يلفت الانتباه إليه، من حيث هو حضور مزدوج، قائم بالكتابة فى الكتابة، وقائم بالكتابة خارج الكتابة، حيث العالم الذى تتولد عنه الكتابة دالا لتحتج عليه مدلولا، جاذبة الوعى إلى كيانها الذاتى في الوقت الذى تجذبه إلى موضوع احتجاجها الذى تسعى إلى نقضه ومجاوزته. ولذلك لاتقع قصص هذه المجموعة فى شراك نقيض خطابها، ولاتكتسب مقلوب صفات غريمها الذى يوقع غيرها فى شراكه، خصوصا حين يتم نقضه بما لايفلح إلا فى استحضاره، إما بواسطة المبالغة فى تصويره، أو تصوير المرأة بوصفها النقيض المطلق لكل صفات الرجل، فتكون النتيجة نوعا من كتابة الأنثى التى تتمرد على الرجل فى حدود نظرته هو، وبواسطة آليات دفاعية تسجنها فى استعراض نرجسى، هو انعكاس لوقوعها فى شباك الهيمنة التى تنفيها بما يشدها إليها، فلا تفلح إلا فى كتابة

نفسها بوصفها مفعولا غير مباشر للفعل الذى يتعدى إليها بواسطة استجابتها هى إليه.

ومايتقذ كتابة أهداف سويف من هذا الشرك، فى الكثرة الكاثرة من قصص هذه المجموعة، أنها تقيم توازنا رهيفا بين علاقات المشابهة والمخالفة من منظور الهوية الجنسية للكتابة، ولا تصوغ نظرة المرأة إلى عالمها من منطلق آلية دفاعية تستحضر العفريت الذى تريد أن تطرده، وإنما تصوغ نظرتها من منطلق محاولة متصلة لاكتشاف الهوية المائزة للأنا المضمرة فى الكتابة الأنثوية، وذلك بوصفها هوية لاتتجلى إلا بما يصلها بالآخر على المستويات العلائقية المتعددة للاتفاق والاختلاف، المشابهة والمناقضة، الاتصال والانفصال، فى الفعل المعرفى الذى لايكمل للأنا تعرفها بنفسها إلا بتعرفها الآخر، نظيرها فى العلاقة التى هى فاعلة فيها بقدر ماهى منفعلة بها.

هكذا تتسع حدقة الأنا المضمرة فى الكتابة، عبر المستويات المتعددة للرؤية والمنظور، فتصل بين المرأة والرجل فى علاقة القمع التى يمارسها الطرف الثانى على الطرف الأول، لكن دون أن تنسى الإيماء إلى مايضع هذه العلاقة ضمن شبكة علاقات أوسع من القمع الواقع على الطرفين معا، ثقافيا واجتماعيا واقتصاديا،حيث تجليات السلطة المعاشة، الموروثة والمكتسبة، فى مفارقاتها التى تتحول بالضحايا إلى جلادين، وذلك فى الأحوال التى ينعكس فيها القمع على المقموع كما ينعكس الضوء على المرآة، فيعيد المقموع إنتاج القمع الواقع عليه، ممارسا إياه على الذى هو شبيهه فى الوضع ونقيضه فى الهوية الجنسية. وتلك هى خصوصية القوة التى تشع حضورها القمعى المائز فى العالم الثالث تعميما والأقطار العربية تخصيصا، حيث يختلف وعى الكتابة نتيجة وعى الواقع، وتتكشف النسوية العربية عن عنصرها الاختلافى الذى يفرض نفسه على الكاتبة العربية، سواء أرادت أو لم ترد، اعترفت بذلك أو لم تعترف، لأنه العنصر الذى

يمنح هذه الكاتبة خصوصيتها بالقياس إلى غيرها من الكاتبات في العالم (المتقدم؟) الذي تختلف همومه عن هموم عالم الكاتبة العربية، حتى لو عاشت هذه الكاتبة في أوطان غير أوطانها، أو كتبت بلغة غير لغتها الأم.

وأتصور أن الكتابة بلغة غير اللغة الأم، كما في حالة أهداف سويف، لا تقلل من درجة تميز هذه الخصوصية، أو تنأى بالمكتوب عن هموم الثقافة الأم التي فرضت أسئلتها على هذا المكتوب، بوصفها العلة الفاعلة في التشكل الكتابي، من حيث هو تجسيد لرؤية وكشف عن معاناة وإبراز لخصوصية ثقافية. إن القيمة النوعية التي اكتسبتها كتابة أهداف سويف بالإنجليزية، خصوصا بعد أن نشرت روايتها "في عين الشمس" (عن دار نشر جوناثان كيب. لندن ١٩٩٢) التي جذبت إليها انتباه النقاد في انجلترا وأمريكا، ولفتت أنظارهم إلى مجموعتها القصصية السابقة "عائشة" (صدرت عن دار نشر بلومزبري. لندن ١٩٨٣) التي لم تلفت الانتباه بالدرجة نفسها، لاتختلف عن القيمة التي اكتسبتها كتابة غيرها من الكاتبات بهذه اللغة الأجنبية أو تلك، نتيجة عوامل غير بعيدة عن تجليات القوة في عالمنا المعاصر، وتعقد أوضاع الثقافة العربية التي يغلب عليها الاتباع لا الابتداع، ومن ثم البحث عن لغة قد تتيح من الحرية ماتفتقده في ممكنات اللغة الأم. أعني أنها قيمة الوعي بالخصوصية، والرغبة في تأكيد حرية الحضور داخل هذه الخصوصية وانطلاقا منها، من منظور يحرر القدرة الإبداعية في نقلها إلى الآخرين، كي يدركوا العام من وراء الخاص، والإنساني في علاقته بالقومي، والجذر المشترك الكامن وراء تقاطع الثقافات المتباينة، لكن دون أن تنسى الكتابة مبدأها الذي تولّدت منه دالا لتحتج عليه مدلولا، أو تنسى همومها المتعينة التي تضعها في الصدارة، لأنها الهموم التي تجعل منها كتابة تنسج أسئلتها الإبداعية المائزة.

ولولا ذلك مالفتت كتابة أهداف سويف الانتباه إليها في الإنجليزية، وماشعر قارئ هذه اللغة، في العالم الناطق بها، أنه إزاء حضور أنثوي مختلف، وسؤال

هوية مغاير، داخل الأفق الإنساني الذى لاتقوم وحدته إلا بالتنوع والتعدد. والإنجليزية فى حالة أهداف سويف، كالفرنسية فى حالة آسيا جبار، أو غيرهما، مجرد وسيط، أو لغة بالمعنى الضيق والنسبى وليس بالمعنى الفنى والوجودى. وآية ذلك أن القارىء العربى الذى يعرف الإنجليزية أو الفرنسية سرعان مايشعر بهموم لغته القومية، عبر المكتوب بالإنجليزية أو الفرنسية، فى هذا النوع من الكتابة التى اختارت لنفسها، أو فرض عليها أن تختار، وسيطا أجنبيا تعبر به عن هموم ثقافتها القومية. وإذا كانت اللغة الوسيط، فى علاقة دوالها بمدلولاتها، تشد المكتوب إلى دائرة تتقاطع فيها ثقافتان على الأقل، فإن هذا التقاطع لاينفى ثقافة المبدأ التى هى هموم المعاد، ولا يزحزح خصوصية هذه الهموم عن موضع الصدارة، وإن أدمجها فى إطار أشمل من المعاناة الانسانية.

ويبدو أن أهداف سويف قد أرادت تأكيد هذا الإطار بواسطة هذه المجموعة التى تنشرها مجتمعة بالعربية لأول مرة، مختارة ثلاث قصص من مجموعتها القصصية الأولى "عائشة" (وهى قصص: تحت التمرين، المولد، عودة.) وخمس قصص من مجموعتها القصصية الأخيرة "زمار الرمل" التى نشرت عن دار بلومزبرى فى لندن منذ أشهر، مستبقية عناوين أربع منها (هى: ميلودى، شى ميلو، السخان، أذكرك.) ومستبدلة بعنوان الخامسة (زمار الرمل) الذى كان عنوان المجموعة الانجليزية، عنوانا أقرب إلى حواف المدلول فى العربية، هو "زينة الدنيا" الذى أصبح عنوان المجموعة العربية، ودالا على الرمزية الخاصة التى ينطوى عليها معنى الأمومة، وماتفرضه على الأم من تضحيات فى الثقافة الشعبية العربية التى تحتفى الاحتفاء كله بمعنى الآية السادسة والأربعين من سورة "الكهف" التى تقول: "المال والبنون زينة الحياة الدنيا ...". وينطوى هذا الاستبدال للعنوان على تحويل التناص من ترابطات قصيدة "زمار الرمل" للشاعرة الإنجليزية المعاصرة اليزابث بيشوب إلى ترابطات الميراث الدينى الذى يعطف العنوان العربى "زينة الحياة" على ثقافة القارىء الذى يتوجه إليه النص المترجم، أو النص الذى أسهمت

الكاتبة نفسها فى إعادة صياغته باللغة العربية، وهو قارىء ظل مضمرا فى النص الانجليزى بطريقة أو بأخرى، تشير إليه علامات متعددة، لاتفلت الإشارة إلى هموم الكتابة الموصولة بثقافته التى تنطقها الكاتبة بلغة مغايرة. وآية ذلك تجاوب الدلالة السياقية ما بين وصف البطلة فى القصة الأولى (زينة الحياة) لابنتها بأنها كنزها وفخها مع ماتقوله البطلة فى قصة "أذكرك" على سرير المرض فى المستشفى: "ابنتى فى الحقيقة هى السبب فى أننى أفضل أن أبقى على قيد الحياة".

والواقع أن تجاوب هذا المعنى المرتبط بالأمومة يشى بالحضور الأنثوى للقصص التى تتكون منها هذه المجموعة العربية الأولى لأهداف سويف، على مستويات متعددة، فالسرد لايفارق المرأة فى القصص الثمانى إلا ليعود إليها، حتى عندما ينفيها الرجل إلى هامش الحضور، أو إلى حضور كالغياب، أو يمارس عليها القمع الذى يحوم حول سفاح المحارم مرة، أو ينتهى إلى فعل أشبه بالاغتصاب مرة ثانية. والمرأة المقموعة مغتربة فى القصص التى تتصدرها فى كل الأحوال، يضنيها الحنين لزمن مضى ولن تعيشه من جديد، أو تشتاق لحبيب لم يكن لها، وتتطلع إلى حبيب لم يوجد بعد، لكنها تسير نحو الحافة دائما، داخل فضاء محاصر أشبه بالسجن، وأماكن مغلقة كالزمن الماضى، حتى عندما تتحرر من قيودها القديمة، باحثة عن التعاطف والحنان والمودة فى عالم سرعان ماينتهى فيه الحب، ويظلله الموت كالعقم الذى يحكم به الرجل على نفسه حتى لايلبى حاجة المرأة إلى طفل، أو يصيب الرجل والمرأة عندما يفارقهما الحب، أو تنتهى إليه المرأة حين تسلم حياتها إلى وهم الحبيب الذى لم يكن لها قط. والتمرد المكتوم على الهيمنة الذكورية التى لاتكف عن ممارسة فعلها، فى هذه المجموعة، لا يوازيه إلا القمع الذى يغدو الرجل نفسه ضحية له، كأنه الصورة المقلوبة للأنثى (فى قصة تحت التمرين) أو المرأة التى تعيد إنتاج ما يقع عليها، كما يفعل الأخ الذى يعيد

إنتاج الثقافة الأصولية التى وقع ضحية لقمعها على أخته، فى الآلية المنعكسة التى تنطوى عليها قصة "السخان".

وتتسع حدقة النظر، فى مثل هذه القصص، بما يوازى ماتتطلع إليه العين من ألوان التعددية الثقافية التى يشير إليها تعدد جنسيات الشخصيات، واصلة مابين الشرق والغرب فى توتر المشابهة والمخالفة. والشىء الجديد فى إنجاز أهداف سويف الإبداعى، على نحو ماتظهر هذه المجموعة فى تواصلها مع أعمالها السابقة، أنها تكتب عن الأنا والآخر من الداخل، ولاتقع فى فخ الدفاع عن الشرق فى مواجهة الغرب، أو الغرب فى مواجهة الشرق، بل تقدم مايتصل بهذا الجانب أو ذاك فى نوع من رغبة التعرف، دون تعصب أو خطابة أو نعرة وطنية، من منظور ينفى الثنائيات التقليدية للعلاقة التى تلقى عليها قصص هذه المجموعة ضوءا مغايرا، حين تدخلنا إلى عالم متعدد الجنسيات والقوميات والثقافات، عالم تتجاور فيه المرأة الانجليزية والتركية والمصرية واليونانية والسعودية جنبا إلى جنب رجال متعددى الجنسيات والثقافات، ليؤدى الجميع أدوارا متوازية متجاوبة الدلالة، من حيث الإشارة إلى العنصر المهيمن للحضور الإنثوى المقموع داخل علاقات النص. ولافارق فى هذا الجانب، جذريا، بين موقف المرأة الأوربية والشرقية فى قصة "ميلودى" على سبيل المثال، حيث الزوجة الأوربية التى تشعر بالغثيان للطريقة التى تعامل بها النسوة المسلمات أزواجهن، فى نظرتها المتعالية إلى الرجال المسلمين الذين لايكتفون بما لديهم من أبناء أبدا، وأغلبهم يريدون الولد، هى الوجه الآخر من الزوجة التركية التى تشبهها فى التحليل النهائى للعلاقة بين المرأة والرجل، فزوجها الأوربى لايمنحها طفلا إلا فى نوع من المقايضة اللاإنسانية، ويقوم بتعقيم نفسه حتى لاتطلب منه أن يمنحها طفلا آخر، لأن جوهر علاقته بها لايختلف جذريا، وإن اختلف فى الملامح الخارجية الشكلية، عن علاقة الذكر بالأنثى فى الثقافات التى تراها الأوربية أدنى من ثقافتها.

ومن الواضح أن التعددية الثقافية التى تنبنى بها قصص المجموعة هى المسئولة عن نبرة التسامح التى تنطوى عليها، فالمشكل الانسانى الذى يناوش القصص مشكل يجمع مابين الثقافات والأجناس، ولايمايز بين ثقافة وأخرى إلا من منظور الخصوصية الذى يتكشف عن تكرار الأصل الإنسانى نفسه. ولذلك تتسع بؤرة النظر إلى العلاقات الانسانية، من الزاوية التى تعطف الانسان على الانسان، فى أفق المكان المتعدد الأجناس والأعلام والأعراق داخل القصص، ومن منظور العنصر المتكرر المرتبط بوضع المرأة داخل المجتمعات التقليدية وغير التقليدية، ذلك الوضع الذى لمسته بطلة القصة الأولى فى المجموعة، وهى انجليزية الجنسية، حين حدثها صديقها الإفريقى بأدب جم عن المكانة الدنيا للنساء حديثا مهذبا، لأنها أمرأة أوربية جاءت فى مهمة عمل، ويمكن معاملتها بوصفها رجلا فخريا. وهو الوضع نفسه الذى تعانيه هذه المرأة التى أحالتها علاقات المجتمع المصرى إلى كائن يتمرد على هامشيته، شأنها فى ذلك شأن شبيهتها الأوربية (فى قصة ميلودى) التى حرمها زوجها من حلم الإنجاب ثانية، كأنه يحكم عليها بما يشبه عقم الانتظار الأبدى لليونانية العجوز ميلو، أو كأنه يدفعها إلى المصير نفسه الذى انتهت إليه عائشة فى قصة "المولد".

وتصل حدقة النظر المتسعة فى القص، أخيرا، بين تقنيات أساليب متباينة، أبرزها أسلوب القطع السينمائى بواسطة اللقطات المتجاورة للأزمنة المتغايرة، والانتقال المكوكى بين الماضى والحاضر لإبراز معنى الحاضر فى علاقته بالماضى، ومن حيث قدرته على الإرهاص بالمستقبل، وذلك فى موازاة نزعة غنائية لاتخطىء العين الفاحصة تجاورها مع علاقات عنف مكتوم، فى اللغة، يكاد ينفجر فى الأسطر، لايوقفه سوى الموازيات التى تتحول بها الشخصيات إلى مرايا يعكس كل منها مايقع على غيره، فى نوع من الثنائية المتقابلة التى يكشف بها كل نظير عن نظيره، بالقدر الذى يكشف به كل نقيض عن نقيضه، وذلك كله فى علاقات سردية

لاتخلو من تعدد مستويات التكشف الزمانى والمكانى، فى نغمة متكررة الرجع على مستوى الدال، نراها فى تراكيب اللغة وعلاقاتها التى تشف عن نوع خاص من الهوية الجنسية، كما نراها فى تجليات المؤلف المضمن الذى لايتردد فى الكشف عن نفسه بالتعليق على تحولات الشخصية التى يرقبها فى انتظار المصير الذى يجمعه وإياها.

جابر عصفور

زينة الحياة

أقف فى نافذتى أرقب الطريق المدق من الحجر الأبيض ، يحدوه جدار أبيض منخفض ، ولكنه بعد ، يحجب عنى رؤية ما وراءه فى وقفتى هنا . رمال بيضاء تتحرك بطيئا على الطريق الأبيض . كنت أتبع بنظرى نسقا منتظما فى حركتها ، أشكالا تتغير وتنمو بين حمرة الغروب في يوم وزرقة الفجر الباهتة فى اليوم التالى. وكنت ، إذ أقطع الطريق ، أسير على أطراف أصابعى ، لا يكاد باطن قدمى يلمس الفراغات المستوية ، التى تومض بيضاء بين تراكمات الرمل ، وقد خيل إلىّ أن أشكال الرمال على الحجر يجب أن تترك للطبيعة ، وحدها فلا أريد أن تغير ذرة رمل واحدة مسارها بسببى . ماذا يفيدنى أن أحاول تفسير شكل كانت لى يد فى تنسيقه ؟ الطريق أمامى، وبعده يمتد الشاطىء ، وبعد ذلك البحر.

أيامى

فى السنوات الأولى كنت أجلس على الحافة حيث تدفقت أمواج البحر وتدفقت، تنساب حروفها البيضاء المزبدة تقضم الرمل ، برفق ، ثم تنحسر ، مخلفة أهلة واسعة من الرمال المبتلة ، أعمق لونا ، وقد انقلب اصفرارها الى البنى الفاتح .

كنت أعمد إلى الجلوس فى حدود واحد من تلك الأقواس ، فى المنتصف بالضبط ، أجلس وكأنى فى مركب ، وأنتظر . وقد تلامس الموجة قدمى ، وقد تحيط بى متدفقة وتغطينى حتى خصرى ، ثم تنحسر ، ساحبة طبقة من الرمال من تحتى ، وأنا جالسة أرقب الماء يختفى تدريجيا من حفرتين يرتاح فيهما كعباى، وخفيفا كظل سحابة عابرة ، ينزلق هلال الرمل الذى أعتليه فى إثر الموجة التى كونته ، فلا يلبث أن تجتاحه وتغمره الوثْبة التالية من البياض المزبد .

أسند ظهرى إلى جدار الغرفة وأعد السنين : إثنتا عشرة سنة مضت منذ التقيت به ، ثمانى سنوات منذ تزوجته ، ومن ست سنوات أنجبت ابنته .

فى كل صيف طوال ثمانى سنوات نحضر هنا ، إلى بيت المصيف على الساحل غرب الاسكندرية ، فى الصيف الأول لم يكن هناك مجال للتأمل : كان

همى منصرفا إلى حب زوجى هنا ـ فى مكان جديد على . عشقته وهو يخطو صوب مظلتى نافضا الماء عن شعره الأسود ، وقدماه تغوصان فى الرمل الناعم المضياف ، عشقته وهو يحمل ابن أخيه على كتفه وينزل الى البحر ، يلقى به فى اللجة ليلتقطه من جديد .. عملاق يخوض عباب الموج ، أحببته وهو يلعب الطاولة مع أبيه فى العشية ، وقرقعة الفيش وخشخشة الزهر تتعالى فى أرجاء الفناء ، وأنا أجلس مع أخته الى طاولة السفرة تعلمنى كيف أخط أحرف لغتهم الدائرية الزخرفية . أحببت هذا الـ «هو» الجديد ـ الذى سبق الإيحاء به ولكنه لم يتكشف أبدا ونحن نعيش فى بلادى الشمالية ـ وقد عاد إلى قلب بلاده بعد غياب طويل ، وأتى بى معه . كنا ساعة الغروب ، نسير على امتداد حافة المياه ، نركل رذاذ الماء المتطاير ، وقبعتى الشمسية مرخاة على ظهرى ويدى ، التى أصبحت برونزية فى يده السمراء ، ومن المؤكد أن تعبيرات وجهى كانت تعكس تعبيرات وجهه : زوجان شابان يتقدان عافية وحبا ، يصلحان لإعلانات شركات التأمين على الحياة أو شركات السياحة تدعوك الى اجازة قصيرة فى بلاد مشمسة .

صيفى الثانى هنا كان الصيف السادس فى عمر حبنا ، والأخير فى عمر سعادتنا ، كنت حاملا فى طفلتى وأعشق أباها . أجلس على الشاطىء وأطلق العنان لأفكارى ، أذكر حياتنا فى بلدى قبل أن نتزوج : أربع سنوات فى الشقة الصغيرة التى أضيفت كيفما اتفق على سطح بيت قديم ، فى ساحة من الطراز الجورجى . يلقانى فى موقف الباص عند عودتى من العمل .فى أيام الآحاد ـ إذا لم تمطر ـ نجلس فى الحديقة حاملين جرائدنا . سهراتنا المتأخرة فى صالات السينما . فكرت فى هذه الأشياء وافتقدتها ، ولكن دونما إحساس عارم بالفقد ، وكأنها باقية ماثلة ، تنتظر أن نستدعيها ونحياها من جديد ، متى شئنا .

كنت أمد بصرى الى البحر . وأدرك اليوم أننى كنت أحاول أن أتبين الروابط بين الأشياء ، فكرت مليا فى الماء والرمل وأنا جالسة أرقبهما يلتقيان ويتغازلان ويتلامسان، وأحاول أن أتمثل أننى على الحافة ، حافة أفريقيا ذاتها ، وأن اتساع

البحر المقابل لايقارن البتة بما يقوم ورائى . عجزت بصيرتى عن إدراك عالم ليس حاضرا أمام عينى ، رغم أننى توغلت فى القارة ، وعاينت بنفسى المساحات الشاسعة من الأخضر المغبر اللانهائى ، والجبال ، والسماء الواسعة، لكننى لم أكن أرى إلا الشاطىء والأمواج والزرقة ، وعبر ذلك كله طفلتى .

كنت أجلس ويدى على بطنى ، أنتظر حركتها :الانفجارات المتناهية الصغر ، والرفرفات التى تدلنى على مكان رقودها وعلى مزاجها ، وتدريجيا أخذنا نتحاور ، كانت تكور جسدها وتكمن بصلابة فى إحدى زوايا جسدى حتى أنكفىء فى وضعى غير المريح أحثها وأنخسها لتعود الى موقع ألطف . كنت أدلك زاوية ما من بطنى بتؤدة ، وإذا بخبطة خفيفة تسرى مباشرة نحو يدى ، أنقر أنا ، وتخبط هى من جديد . كنت فى التاسعة والعشرين . انتظر بدنى سبعة عشر عاما لكى يعلق بالحمل ، وها هما قلبى وعقلى يجاريانه ـ الطبيعة فعلت فعلها على نحو مثير للاعجاب ، فرغبتى فى الطفلة نبعت من عشقى لأبيها ـ وكم كنت غارقة فى حبه ذلك الصيف ، جسدى لا يشبع من الأب ، وطفلته آمنة فى داخلى .

من موقفى هنا لا أرى سوى البياض الجاف الصلب . الوهج الأبيض ، والجدار الأبيض ، والطريق الأبيض يضيق فى البعيد .

كان على أن أغادر ، لم تعد الفكرة تلسعنى ، أضحت معتادة رتيبة ، كان على أن أغادر فى فورة ذلك الغضب الحائر المجروح حين أحسست للمرة الأولى أنه ينسحب بعيدا عنى .. كان يجب أن أذهب . كان على أن أستدير وأحمل طفلتى ، وأغادر ـ أستدير ـ الحجرة تسبح فى ظل خفيف ، شيش النافذة مغلق يحجب الشمس الساطعة . يطلقون على المصراع الخشبى اسم «الشيش» يقولون انها كلمة فارسية تعنى «زجاج» الشىء الملاصق لشىء آخر يتسمى باسمه . تراودنى هذه الفكرة مرارا ، وأشعر أنها ستقودنى إلى شىء ما وسأخلص إلى نتيجة منها، ولكنى لم أفعل بعد .

أمر بإصبعي على فتحة من فتحات الشيش ، هنا وفي المدينة تقوم أم صابر ، مربية زوجي ، بكل أعمال المنزل . في البدء حاولت أن أساعدها على الأقل ، ولكنها كانت تهرع نحوى وتسحب منفضة الغبار أو المكنسة الكهربائية من يدى قائلة : عيب ، عيب . أمال أنا باعمل إيه؟ خلى إيديكى حلوة وناعمة . روحى استريحى أو روحى النادى . مالك ومال الحاجات دى؟ كان زوجي يترجم ذلك كله، ثم يقول لها كلاما فهمت فيما بعد أنه يطمئنها أننى قريبا ما سأعتاد على أسلوب حياتهم . وكنت إذا خططت وجبة طعام لاتفلح ، وأم صابر تطبخ أفضل مايتوفر في السوق ذلك اليوم ، وإذا نزلت إلى السوق ضاعف الباعة أسعارهم . وأنا الآن أقوم بتنسيق الزهور وتمليس الثنيات في الستائر ، وأتصدر المائدة في الولائم التى نقيمها .

سريرى مرتب . فراشي العريض الذى تلقى لوسى بنفسها فيه في منتصف كل ليلة ، حين تتسلل نصف نائمة تحت الناموسية ، تلتصق بى ، فأحضنها بذراعى الى أن تدفعه بعيدا عنها . تستخدمنى أثناء نومها ، فصدى وسادتها حينا ، وفخذى مسند قدمها . أما أنا فأرقد راضية ، سعيدة باستخدامها لى . أمسك قدمها بيدى ، وأقبلها ، وأفكر في المستقبل القريب عندما يصبح من غير المقبول أن أقبل القدم البضة .

ذات مرة ، منذ سنوات عديدة ، وقفت أنظر إلى امرأة باكستانية نائمة على أريكة من الجلد الأسود ، في صالة ترانزيت في أحد المطارات ، كان ثوبها وبنطالها من حرير أصفر زاه ، والثوب موشح بأزهار يانعة من البنفسجي والأخضر ، الأساور الذهبية تغطى ذراعيها ، أقراط من ذهب في أذنيها وفي منخارها الأيسر ، وعقد ذهبى يطوق جيدها . طفلها الصغير ملتصق بجسدها ، إحدى قدميه محشورة بين ركبتيها ، وأنفها مدسوس في شعره . كان أثمن ماتملكه في الدنيا معها على تلك الأريكة كاملا غير منقوص ، ولذا استسلمت الى نوم عميق . هذه الصورة خزنتها له في ذاكرتى .

رتبت سريرى هذا الصباح ، بسطت ذراعى بعيدا ولملمت الناموسية الناعمة المنتفخة ، طويتها على شكل لفة سميكة . وعقدت طرفها ليتدلى بأناقة فى الهواء فوق الفراش .

قبل تسع سنوات حين جلست تحت ناموسية للمرة الأولى كتبت : «الآن أعرف ما تحسه المرأة الأوربية فى المستعمرات» . كان ذلك فى كانو ، فى قلب القارة التى أجلس على حافتها الآن . كانت ثلاث سنوات قد مرت على بداية حبنا ، وكان تباعدنا آنذاك مجرد تنويع لحضورنا معا ، كنا إذا افترقنا ظل افتقاد كل للآخر ينهش قلبينا ، ونقول إن هذا يؤكد توحدنا الحقيقى الجوهرى ، افترقنا فى مطار هيثرو على أن نلتقى بعد أسبوعين فى القاهرة لأقابل أهله للمرة الأولى .

فكرت فى كتابة قصة عن هذين الأسبوعين ، عن رحلتى الأولى إلى أفريقيا ، عن محمد السنوسى وهو يحدثنى بأدب جم عن المكانة الأدنى للنساء . كان مهذبا لأننى امرأة أجنبية ، أوربية ، جئت فى مهمة عمل، فيمكن أن أعامل كـ «رجل فخرى» فكرت فى كتابة قصة عن الطريق الطويل المستقيم فى السفر الى مايدوغورى ، والتوقف عند استراحات من الأكواخ لمضغ اللحم الذى كنت كثيرا ما أبتلعه صحيحا . والسنوسى يحدثنى عن اللحم فى أوربا وكيف يذوب فى الفم مثل الأرز باللبن فلا قوام له . أكتب قصة الأسد الذى لمحته بين الأعشاب الطويلة فطلبت من السائق أن يتوقف وقفزت من السيارة وصوبت آلة التصوير والتقطت صورة له وهو رابض .

وحين عدت إلى السيارة كان السائق يستجمع قواه بعد أن دب الرعب فى أوصاله، وأكد لى أن الأسد كان يستعد للانقضاض علىّ. ما زلت أحتفظ بالصورة: لقطة قريبة لأسد رابض وسط أعشاب طويلة . أتطلع إلى الصورة ولا أستطيع أن أصدق ما كان يمكن أن يحدث .

ولم أكتب القصة رغم احتفاظي بما دونته من ملاحظات . هنا ، في هذه المحفظة الجلدية التي أستخرجها من درج في خزانتي ، قصتي الأفريقية . رويتها له بدل كتابتها ، وكنا نجلس الى مائدة مضاءة بالشموع في مطعم في القاهرة ، فقبل يدي وقال «أنا مجنون بك» كان النيل يتدفق أسفل النوافذ العالية وكانت «إلى الأبد» على شفاهنا ، في أعيننا ... تزوجته ، وكنت سعيدة .

أتصفح مادونته من ملاحظات ، كل واحدة تنطوي على تعليق ، وعلى وصف هو المقصود به ، أفكاري جميعها كانت تدور حوله . أما هو فكتب يقول إنه في المطار عاد ليبحث عني بعد أن مضيت ، ليضمني ويخبرني بما يشعر به من وحشة . ولم يصدق أنني لست معه لتهدئة مشاعره . وكتب يصف نبرة صوتي على الهاتف ، والثنية التي في أعلى ذراعي ، وقال إنه يعشق تقبيلها .

ماذا يمكن أن أكتب ؟ أجلس بمذكراتي إلى المكتب وانتظر لوسي . المفروض أني نائمة . هذا مايعتقدون ، هذا ما نتظاهر به : اني أنام حتى تمضي ساعات الحر الشديد في منتصف النهار ، ولوسي هناك في الخارج على الشاطيء وقرب حمام السباحة ولا تحتاجني . معها أبوها ، وعمها وعمتاها ، وأبناؤها الخمسة.. وفرة من رفقاء اللعب والحماة .. وأم صابر تجلس هناك صابرة يقظة في جلبابها وطرحتها السوداء ، وبجانبها الكراسي محملة بالمناشف ، وزيوت الوقاية من الشمس ، والقبعات العريضة ، والشطائر ، والمشروبات المثلجة المعبأة في برادات الترموس .

أتطلع وأراقب وأنتظر لوسي .

في سوق كادونا في نيجيريا كانت الذبائح المرقشة الحمراء مصفوفة على منصات خشبية تظللها مظلات رمادية من البلاستيك ـ في البداية رأيت اللحم ، الذباب يتدافع ويحط عليه ، ثم رأيت الجوارح فوق ألواح البلاستيك الرمادية ، كانت تقف على الحرف كما تفعل العصافير الصغيرة في ساحة سوق انجليزي ،

ولكنها كانت ثقيلة وساكنة وصامتة . كانت تربض بهدوء بارد ، لايطرف لها جفن ، والشمس الحارقة تلهب رءوسها الصلعاء ، اجتاحنى خوف تبين لى فى لحظتها أنه في غير محله ، وأن الجميع يعرفون بوجود هذه الطيور ويواصلون عملهم كالمعتاد، وأن وجود الجوارح مشهد مألوف فى سوق الجزارة فى كادونا .

حرارة الشمس تنفذ فى مسام المنزل . أفتح باب غرفتى وأخطو خارجة الى الصالة الصامتة ، فى الحمام أقف داخل حوض الدوش وأفتح الصنبور ليتطاير الماء البارد فوق قدمى . أحشر ذيل تنورتى بين ساقى وأنحنى لأضع يدى ورسغى تحت الماء ، أضغط بكفى المبللة بالماء البارد على وجهى وأتخيل صورة سقوف أردوازية رمادية مبللة بالمطر ، أسترجع صور الأشجار . أشجار تحدث حفيفا فى حركة الرياح ، ثم تسقط أوراقها رشات عذبة من قطرات الماء بعد أن يتوقف المطر.

أسير بخطى خافتة على قدمين مبللتين تجفان عند وصولى الى المطبخ فى نهاية الممر الطويل . أفتح الثلاجة وأرى قطع الضأن متبلة فى صينية معدنية واسعة، استعدادا لشواء الليلة . جبل من العنب الأصفر يرشح فى مصفاة . أتناول عنقودا فى طبق صغير أبيض . أم صابر تغسل جميع أنواع الفواكه والخضار مستخدمة محلول البرمنجنات الأحمر . وقاية لى أنا فإن لوسى لا تكف عن قضم الخيار والجزر من سلة الخضر مباشرة . ولكنها ولدت هنا ، وهى تنتمى لهم الآن . لو أننى أخذتها وذهبت حين كانت فى شهرها الثامن لانتمت الىّ أسكب الماء المعدنى البارد فى كوب طويل وأغلق الثلاجة .

أخطو عائدة عبر الممر ، مارة بغرفة أم صابر ، بغرفته هو ، وبغرفة لوسى . وحين أدلف الى غرفتى أقف أمام النافذة من جديد ، وأتطلع من شقوق الشيش الى البياض الذى يبدو الآن وكأنه فقد حدة اشعاعه . لو انتقلت الى النافذة الواقعة فى الجدار المقابل ، لرأيت العشب الأخضر تحيطه أجنحة البيت الثلاثة ، ورشاش الماء يدور فى وسط الحديقة ، يدور بلا توقف .

أدير المروحة فيهب الهواء على شعرى ويلف على وجهى ويبعثر أوراقى . أركع على الأرض وأجمعها . الورقة الأولى : «ننجى يجلس الى مكتبه برصانة ، وأسنانه الكبيرة مصبوغة بلون الكولا . قرب يده اليمنى جرس دراجة يقرعه كلما أراد استدعاء الساعى» مذكرة أخرى : «يجب أن يصف عنوان القصة الأشياء الثلاثة التي نتوقف بسببها على الطريق: البول ، والبنزين ، وباب الصلاة» تلك كانت أياما خالية ، ولم تكن النكات التى أرويها مريرة .

أستلقى على السرير . هذه الوسائد الأربع من إضافاتى ، فهم هنا يستخدمون وسادة واحدة طويلة وعليها وسادتان صغيرتان . بياضات السرير تأتى فى أطقم ، وعلى فراشى دائما وسادتان فى غلافين بسيطين ، ووسادتان مطرزتان بما يتلاءم مع بقية الطقم مع الملاءات. وفى جانب من الشيفونيرة أحتفظ بأكياس الوسائد الطويلة المطرزة . وحين أخرجها وأتأملها ، أجد زهورها يانعة وزاهية وجديدة .

أرفع عنقود العنب فوق وجهى وأنا مستلقية على الفراش وأقضم حبة منه كما يفعل الرومان فى الأفلام . ليتنى ألهو ، ليتنى ألهو من جديد . لكن لوسى هى رفيقة لعبى الوحيدة الآن ، وهى تلهو مع أبناء عمها وعماتها فى حوض السباحة .

منذ بضعة أسابيع ، وكنا فى القاهرة ، تطلعت لوسى الى السماء وقالت :

«أستطيع رؤية المكان الذى سنقيم فيه» .

«أين»؟ سألتها ، والسيارة تقطع شارع الجبلاية .

«فى الجنة » .

«الجنة؟ وكيف ترين شكلها» ؟

«إنها دائرة يا ماما ، ولها مدخنة ، وسيكون الجو فيها شتاء دائما» .

مددت يدى وربت على ركبتها قائلة «شكرا لك ياحبيبتى» .

نعم ، يضنينى الحنين ، ولكن ليس الى الوطن وحده ، أحن لزمن ، لزمن مضى

ولن أعيشه من جديد ، أبدا . أشتاق لعاشق كان لي ، ولن يكون لي من جديد .. أبدا .

راقبته وهو يختفي . لم يكن بالضبط يختفي ، بل يخفت يرتد بعيدا ، لم يكن راغبا في الذهاب ، ولم يذهب بيسر ، طلب أن أمسك به ، ولكنه لم يبين لي كيف . مثل حبنا كجنية الحكايات الطيبة ، جردت في لحظة من إيماننا بسحرها ، تتقلب الى امرأة عجوز حزينة ، وعصاها السحرية مجرد عصا ، لا فائدة ترجى منها هكذا .. كنت أرى مايحدث أرى السدود تتشكل أمامي . خصالي الأجنبية التي كانت تسحره في البداية أصبحت تثير ضيقه : عجزي عن تذكر الأسماء ، عن متابعة تفصيلات السياسة ، وصراعي مع لغته ، وحاجتي الى الوقاية من الشمس والبعوض والسلاطة الخضراء وماء الشرب . لقد عاد الى وطنه ، وكان في حاجة الى من يتآلف معها في بيته . ربما استغرق الأمر سنة، تلك المعركة التي رفضت أن أدخلها ولعل لوسي الرضيعة كانت فيها حليفي ، انشطر قلبه الى اثنين ، أما قلبي فقد إنكسر .. وكفى .

لم أعد أرى فيه حبيبي الآن . وبين حين وآخر إذ يعدو على الشاطيء حاملا لوسي ، أو ينحني ليتفحص كوعها المجلوط ، وأحيانا إذ يلعب مع الأطفال على الرمال ، أو يجلس في مواجهتي الى المائدة الطويلة في حفلات العشاء .. أرى رجلا قد أقع في حبه ثانية، فأشيح بوجهي .

كذلك رويت له حكاية أول سراب رأيته على الطريق الطويل المتجه الى مايدوغوري ، رأيت السراب ثانية على الطريق الصحراوي الى الاسكندرية في أول صيف لي هنا ، فهتفت متشكية :

«يصعب عليّ أن أصدق أن لا ماء هناك وأنا أراه بهذا الوضوح» .

«تعتقدين فقط أن ماترينه ماء» .

«أليس الأمر سيان؟ عقلي يعلمني بوجود ماء هناك ألا يكفي هذا؟»

قال وهو يهز كتفيه : «نعم ، إذا اكتفيت بالجلوس فى السيارة ورؤية السراب». وأردف «ولكن إذا أردت أن تقصدى الماء وتغمسنى يديك فيه وتشربى فالأمر سيختلف ، أليس كذلك» ؟

ونظر الى بطرف عينه ، وابتسم .

بعد قليل سأستمع الى صوت لوسى عاليا واضحا ، تثرثر مع والدها ، وهى تسير ، يدها فى يده ، على الطريق المؤدى الى الباب الخلفى . ثم تأتى خطوة أم صابر الثقيلة ، سأخرج للقائهما مبتسمة ، فيسلمنى لوسى مبللة بالماء والرمل ، ويسألنى إن كنت بخير ، ونظرة قلق خفيف تعلو وجهه ، وقد يربت على كتفى ، وأمضى بلوسى الى حمامى ، ويدخل هو الى حمامه . فيما بعد ، يعود باقى أفراد العائلة واحدا واحدا ، ويستحمون ويبدلون ثيابهم ثم يجلس الجميع إلى مائدة الشواء ، ولسوف يأكلون ويشربون ويتحدثون فى السياسة ويتبادلون النكات ذات المغزى السياسى الساخر اليائس .. ولسوف يضحكون ، لعلهم يتوقعون أن اهتم بالتطريز وأبدأ فى إعداد لوحات «الأوبيسون» التى يتخيل الجميع ، فى الوقت الراهن ، أنها ستكون ضرورية لجهاز لوسى .

البارحة ، حين ألبستها ثيابها بعد الحمام ، تفحصت صورتها فى مرآتى بعناية ، وطلبت أن أعقد لها ضفيرة فرنسية ، جلست خلفها قرب منضدة الزينة ، وأخذت أجفف شعرها الأسود بالسيشوار وأمشطه وأضفره ـ بعد ميلاد لوسى غطت أم صابر جميع المرايا فى البيت ، وشرحت لى شقيقته : يقولون إن الوليد الذى ينظر فى المرآة إنما ينظر الى قبره . ضحكنا ، ولكننا لم نرفع الأغطية عن المرايا حتى أتمت لوسى سنتها الأولى .

تابعت فى المرآة وجه لوسى الجاد . أنا رأيت قبرى ذات مرة ، أو خيل الى ذلك ، وهذا فصل من قصتى الأفريقية . الطائرة القادمة من نيجيريا حلقت فوق مطار القاهرة ، ثلاث مرات سمعت صوت عجلات النزول تنفتح ، وثلاث مرات سمعتها تنغلق . كان يجلس بقربى رجلا أعمال من فنلندة ، وعندما سمعنا الإعلان عن

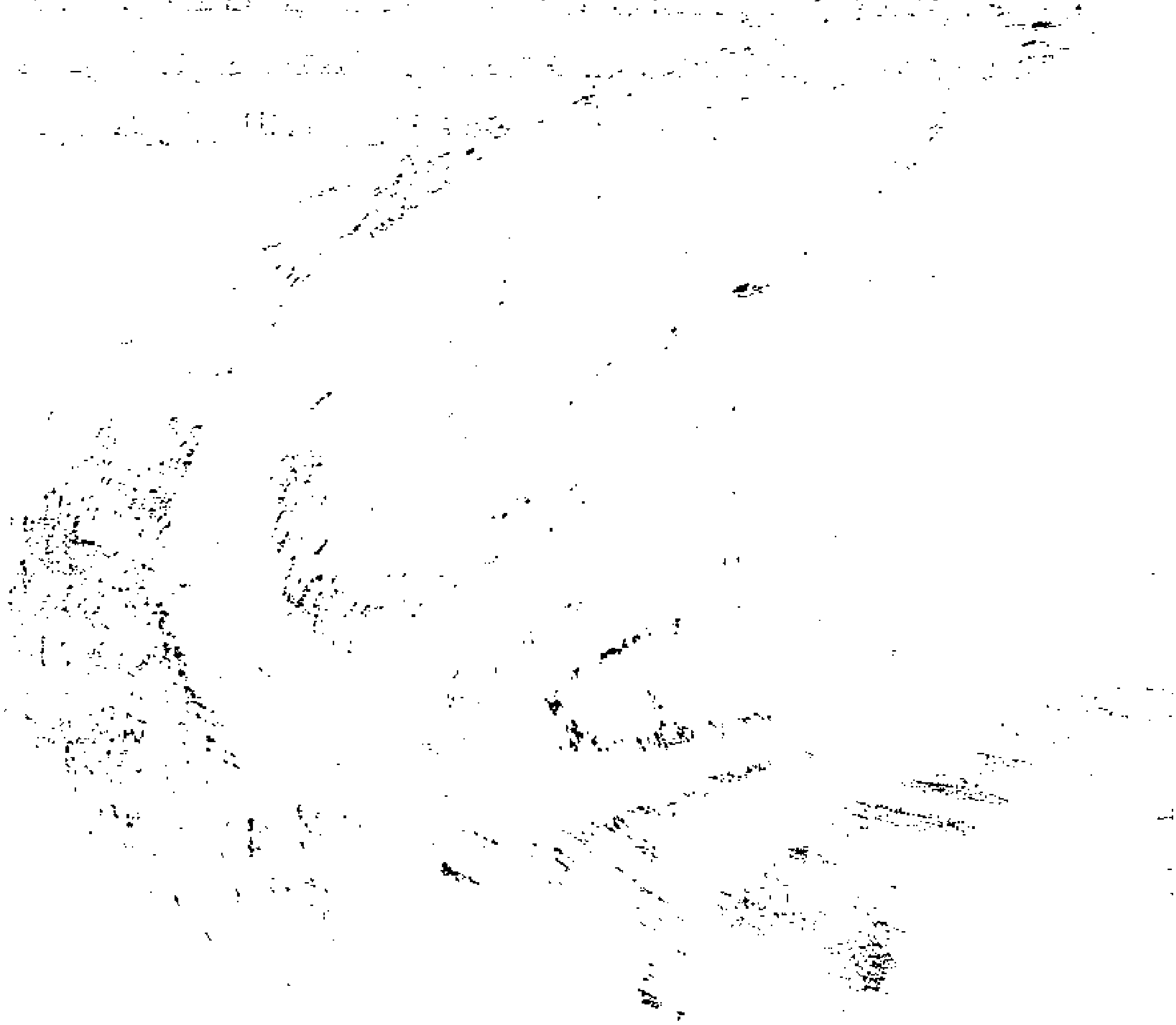
تغيير مسار الطائرة الى الأقصر هز كل منهما رأسه وطلبا مشروبا ثانيا . وعند الفجر ، فوق مطار الأقصر ، أعلمونا بوجود عطل فى آليات النزول ، وأن الطيار سيحاول القيام بهبوط اضطرارى وقلت فى نفسى : هذا هو السبب في المجيء بنا إلى الأقصر ، لكى نحترق فى ستر ولانعطل الحركة فى مطار القاهرة . طلب منا أن نربط الأحزمة وأن نخلع الساعات والأحذية ، وأن نضع الوسائد الموجودة خلف المقاعد على حجرنا ، وننحنى عليها وأذرعتنا معقودة خلف رءوسنا . علقت حقيبة يدى ، بما تحتويه من جواز سفر وتذاكر ونقود ، فى عنقى وكتفى ، قبل تنفيذ تلك التعليمات . تصافح جاراى الفنلنديان بوقار ، وخيم على الطائرة صمت مطبق ونحن ننحدر من السماء ، وحين ارتطمنا بأرض المطار تعالى صرير معدنى رهيب ومديد . وفى تلك اللحظة بدا رأسى ، بل وجماع نفستى ، وكيانى بأسره ، على حافة إشعاع فارغ خاو ، ولكنه جلى بين . ثم تملكتنى أفكار ثلاث : أولاها هى : اسمه يلح على المرة تلو المرة . ثانيتها الأطفال الذين لن أنجبهم ، وثالثتها أن النسق قد اكتمل : هذا ما آلت اليه حياتى .

نجونا ! فأضحت تلك الفكرة الأولى : اسمه ، اسمه ، اسمه، تعويذة ، ألم يكن هو الذى تراءى لى فى أحلك لحظات الشدة وكأن ما عداه محى تماما من حياتى ؟ حياتى هذه عادت تنبسط أمامى . تومض بالاحتمالات ، مقدر لها أن تندمج فى حياته .

انتهيت من الضفيرة الفرنسية ، واختارت لوسى مشبكا أزرق اللون لعقد الذيل، دلكت وجهها بقليل من الكريم الملطف قبل أن أدعها تذهب . كانت بشرتها مسمرة باستثناء ماخلف أذنيها ، حيث يبهت اللون إلى لون الذرة الفاتح يشع بزغب ذهبى ، قبلت رقبتها وأنا أهمس «لوسى ، لوتشية ، لمبة» ، وأطلقت سراحها. لوسى كنزى .. وفخى .

والآن إذ أسير صتوب البحر ، نحو حافة هذه القارة التى أعيش فيها، التى كدت أموت فيها، وحيث انتظر أن تكبر ابنتى ، وتبتعد عنى تدريجيا ، أرى أشياء مختلفة عما رأيت فى ذلك الصيف منذ سنوات ست. الرمال تبتلع فقاعات الزبد ،

لتغرق عميقا ، عميقا ، وتلحق بالبحر في جوف الأرض ، حيث لانراها ، ومع كل نوبة جزر للمياه الخضراء ، يتخلى الرمل عن بعض منه لصالح البحر ، ومع كل دفقة ماء ، يلقى البحر برمل آخر يستحوذ عليه الشاطىء من جديد . هذا الشريط الضيق من الشاطىء لا يعرف ـ على وجه البسيطة ـ شيئا بقدر ما يعرف تلك الأمواج البيضاء تسوطه ، وتداعبه ، وتنهار فوقه ، وتندثر فيه . والزبد الأبيض لايعرف إلا هذه الرمال تنتظره ، تهب في وجهه ، وتمتصه ، ولكن ، ماذا تعرف الأمواج عن رمال الصحراء المتراصة الساخنة . اللابثة ، على مبعدة عشرين ، بل عشر أقدام ، من الحافة التي تحفرها . وماذا يعرف الشاطىء عن الأعماق ، عن البرودة ، عن التيارات المعتملة على مبعدة قريبة ، هناك ، هناك .. ألا تراها ؟ هناك ، حيث يتغير لون الماء الى زرقة غامقة .



عطر الياسمين يملأ الجو ، كان أيضا يملؤه طوال الشهر الماضي ـ فيما أظن. هكذا يمكنك رصد تغير الفصول في هذا البلد . في هذا البلد ، تزهر البوجينفيليا الحمراء على الجدران طوال العام ، والسحالي تمرق خارجة من تحت الأحجار لتعود اليها ثانية ، البعوض يطن خارج النوافذ المسدودة بالسلك ، ويمكنك ـ كل صباح من الثامنة حتى العاشرة ـ رؤية عامل النظافة يعتني بحمام السباحة . لا يسمح لنا باستعمال الحمام ، نحن النسوة ، استعماله مقصور على الأطفال ، والرجال بالطبع ، يمكنهم استعمال أي شيء يريدونه . وهم يقومون بهذا فعلا ، أقصد يستعملون كل شيء. أنا لا أذكر أني شممت الياسمين بهذه القوة من قبل . فالليل . فالليل هو الوقت الوحيد الذي يمكن فيه تنسم هذا العطر ، وأنا لا أخرج كثيرا في الليل بسبب «شون» . ولا تفهم من هذا أن هناك أماكن كثيرة هنا يحب المرء زيارتها ـ فليس هناك ، في الواقع ، سوى الذهاب الى السوق ، أو للزيارات داخل المجمع السكني . ولكني لا أذهب حتى الى تلك الأماكن كثيرا . فشون ينام في الثامنة ، وإن لم يحصل على حصته من النوم – ١٢ ساعة – يظل مزعجا طوال اليوم التالي، وهو يستيقظ في السابعة والنصف صباحا ليلحق بأوتوبيس المدرسة .

هناك شيء واحد لم أفهمه أبداً : لماذا لم تذهب تلك الطفلة إلى المدرسة ؟ كانت تبقيها إلى جانبها طوال الوقت . في البدء، عندما حضرنا إلى هذا المكان، منذ ستة أشهر، كانوا هم أول من قابلناهم – بخلاف عمال الصيانة والبستانيين . جئنا في عصر يوم جمعة، وكان أول ما فعلناه هو أننا خرجنا ثانية ، وتجولنا بالسيارة في الطرق القريبة. وأذكر أننا قلنا إنه من حسن الحظ أن هناك محل بقالة ، ومتعهد جرائد، ومحلا لبيع الأزهار ، ومستشفى، على بعد خطوات من المجمع. ورغم أنك لاتستطيع أن تصف أيا من تلك المحلات بالرقي ، فإنها أفضل من لاشيء. وفي صباح السبت ، وأنا كنت عائدة مع شون من محل البقالة، وكان (ريتش)، زوجي ، قد غادر بالطبع إلى عمله – شاهدنا امرأة وطفلة تقفان بجوار حمام السباحة . ابتسمت المرأة ، وجرى شون إليهما ، وتبعته أنا . وأذكر أن

انطباعى الأول عن المرأة كان أنها متبرجة إلى حد ما : شعرها بلون البرونز ، ويمكنك أن ترى الجذور السوداء عند انتهاء الصبغة قرب منابته. وكانت تضع ظلالا سوداء حول عينيها ، وترتدى فستانا أقصر مما تعودنا أن نراه فى هذا البلد. لم تكن ترتدى العباءة ، ولم يكن هذا - فى ذاته - أمراً مستغربا داخل المجمع ، ولكن ليس مع ذلك الفستان القصير. ومع ذلك ، كانت الطفلة جميلة جداً، وتعلق شون الصغير بها من اللحظة الأولى . كانت شقراء حقيقية ، وشعرها متموج بشكل طبيعي خلاب . كان وجهها بيضاويا ، ولها أنف مرفوع الطرف ، صغير ، وعينان زرقاوان واسعتان . وكانت ترتدى خمار أمها كأنه عباءة مصغرة. كانت تكبر شون بعدة شهور فقط ، لكنها كانت أكثر ثقة واعتداداً بنفسها ، كما هو حال البنات دائما . عموماً أخذت (إنجى) (كان هذا اسمها - أعنى المرأة) تتحدث - إن كنت تستطيع أن تسمى ذلك حديثا ، إذ إن لغتها الانجليزية ركيكة جدا - حدثتنى قليلاً عن المجمع ، وسألتها عن المدرسة التى التحقت بها ابنتها لأننى كنت بحاجة لأن أختار مدرسة لشون ، فقالت إن (ميلودى) لاتذهب إلى المدرسة . وأخبرتني أن لديها ولدا رضيعا - اسمه كمال - وأنه نائم بالمنزل. كانت تبقيهما معها ، وكانت تعلم ميلودى القراءة والكتابة. قالت «أحب لها أن تبقى معى» . فكرت على الفور أن هذا خطأ ، برغم أنه - بالطبع - لم يكن من حقى أن أقول ذلك ، لكن الطفلة لم تكن تعرف كلمة انجليزية واحدة . كانت جميلة جداً ، ولم يرفع شون عينيه عنها ، بينما أنا وأمها نحاول أن نتجاذب أطراف الحديث ، وأعتقد أن شون وقع فى الحب .

بعد أيام ، سقطت بندقية شون فى حمام السباحة ، ولم أستطع الوصول إليها ، وكان هو يبكى بكاءً مريراً. ظهرت إنجى فى نافذتها ، وأنزلت يد المكنسة وهى تصيح «جربى هذه ، جربى هذه» - وهكذا أخرجنا البندقية من الماء ، وصعدنا إلى شقتهم كى نعيد يد المكنسة . وأصر شون على البقاء للعب مع ميلودى. لم أفهم أبدا سر هذا الانجذاب ، فالحقيقة أنها لم تكن حتى لتمارس

نفس ألعابه ، بل كانت تلعب بالدمى وتلبسهن ثم تخلع عنهم ثيابهن وتحادثهن بالتركية ، بينما هو يراقبها . وفى أحد الأيام ذهبت لإحضاره ووجدتهما - شون وميلودى - جالسين على أرضية الحمام بأقدام عارية وملابس مبتلة . وكانت إنجى تضحك وتقول : «الجو خار جداً» أهم ما كان يميز إنجى هو الضحك والاهتمام بالملابس والتزين والرقص والطهى . وفى أوائل إقامتنا هنا فى المجمع كانت تزورنا مرتين فى الأسبوع . وفى كل مرة تحضر معها «شيئا صغيرا» من صنع يدها : فطائر ، كعكة التفاح ، بيتزا ، أو أى شىء مماثل . وكلها أشياء تستغرق وقتاً فى الإعداد . وكانت ميلودى الصغيرة تساعدها . وتساعدها أيضاً ، كما قالت، فى صنع فساتين الدمية (باربى). قلت لها «لكن يمكنك شراء ملابسها فى محلات تويلاند بمبلغ زهيد» وأذكر أنها ضحكت وهزت كتفيها وقالت «لكنى أحب الحياكة» وأعتقد أنها تحب أن تطهى وجبة كاملة لزوجها كل ليلة ، ولا تمانع فى أن تقف وتخدم عليه أيضاً . إن الطريقة التى تعامل بها هؤلاء النسوة المسلمات أزواجهن تصيبنى بالغثيان . إنهن يتصرفن بالفعل كأنهن جوارٍ . وبالطبع من المحتمل أن يكون هذا هو سر اقترانه بها : تعجبت عندما رأيته أول مرة : رجل طويل ضخم ، ومن الواضح أنه يكبرها بكثير . قالت - وهى تضحك - إنهم (إنجى وميلودى وكمال) عائلته الثانية . تظاهرت بالدهشة ولكن فى الحقيقة سبق وأخبرتنى (إيلين) بذلك . إيلين هى صديقتى الانجليزية ، وهى تعيش هنا منذ أربع سنوات وتعرف كل شىء - أخبرتنى أنه كان متزوجاً من أمريكية ، وقد عاش فى (دينفر) لمدة عشرين سنة. كان لديهما ولدان ، هو والأمريكية ، وكان يعتنى بهما ، ويقوم بأعمال المنزل أيضاً . كانت الزوجة تعمل ولها شخصية قوية ، ولم تشأ أن تتعب نفسها فى البيت . كنت متعاطفة كثيراً مع ذلك الموقف . أعنى أننى أيضا لا أحب الأعمال المنزلية : أنا أفضل أن أقرأ كتاباً . ورغم أننى أقوم بها هنا - أعنى الأعمال المنزلية - لأننى ليست لى وظيفة ، بينما ريتش له - إلا أنى لا أحبها. على أى حال فإن زوج إنجى (لم يكن بالطبع زوج إنجى فى ذلك الوقت) مل ذات يوم

(وبعد أن حصل على حق الإقامة) ذلك الأسلوب فى الحياة ، فحزم أمتعته وارتحل إلى بلده ، حيث اقترن بزوجة تركية ترى من الطبيعى أن نخدمه فى كل شىء أحضرها معه إلى هنا ، حيث يستطيع أن يحتفظ بها سجينة ، بينما ينصرف هو إلى كسب الأموال الطائلة . ولا نعلم حتى إن كان قد طلق زوجته الأولى . لم تقل إنجى بالطبع شيئا من هذا . قالت فقط إنه عبقرى ، ويعشق عمله ، ويستطيع إصلاح أى آلة على وجه الأرض ، وأن زوجته الأولى «سيئة جداً» ، وأنه هو رجل «مرح وظريف» وأثبتت قولها بأشرطة الفيديو : فها هو يرقص وسط أهله فى عيد ميلاد ميلودى الثالث ، وها هو يصور ميلودى وإنجى الحامل يمرحان فى غابات (فرمونت) . غاية فى المرح والظرف . وإنجى أيضا تتميز بالـ«مرح والظرف» . حين تزورها تجد دائما موسيقى صاخبة : ديسكو ، روك ، شرقى ، كل شىء . وإحدى ألعاب ميلودى المفضلة هى أن تجلس شون على كرسى ، وتطلب من أمها أن تضع شريطا بتلك الأصوات التى تتأرجح بهستيرية بين الولولة ودق الطبول والصناجات ، وتربط إيشاربا حول وسطها ، وترقص له . وهى فعلا راقصة متمكنة، تدق بقدميها، وتحرك ذراعيها حركات ثعبانية، وتثنى رقبتها من جنب إلى جنب، وتميل إلى الوراء حتى أتوقع أن تقع – أما شون ، شون الذى لايستطيع عادة الجلوس دقيقة واحدة دون تململ – فيجلس كالمسحور ، يحدق فى تلك الشقراء الصغيرة التى لاتتحدث كلمة واحدة من لغته وهى تتخايل وتتلاعب بالطرحة . والحق ، لم أكن حتى متأكدة من أن هذه الصداقة لن يكون لها أثر سيىء عليه . لكنه كان يبكى ويثور إذا حاولت منعه من الذهاب – فكان من الأسهل أن أتركه. أذكر مرة اتفقا على أن تأتى ميلودى إلى منزلنا لتلعب معه . ومر الوقت ، ولم تأت . جلس ينتظر . لم يكن قد أكمل الرابعة ، لكنه جلس وانتظر ساعتين كاملتين ثم طلب منى أن آخذه إلى بيتها ، ولما لم نجدها جلس فى مدخل البيت وبكى وكان هذا المجمع كله ، بالنسبة له ، هو «حيث تعيش ميلودى» ولا أعتقد أن اهتمامها كان يعادل اهتمامه ، فقد كان لها شقيق ، وشون لم يكن له

أحد . أو بالأخرى له ثلاثة إخوة ، لكنهم أكبر منه كثيرا ، ويعيشون فى (فانكوفر) فى الواقع نحن أيضا أسرة ثانية كان ريتش متزوجا لمدة خمسة عشر عاما ولا أعلم الكثير عن زوجته الأولى - سوى أنه يدفع لها نفقة كبيرة مما يجعل من الضرورى بقاءنا هنا لفترة طويلة . له منها ثلاثة أبناء ولم يكن يرغب فى أطفال جدد. وشون نتيجة صفقة عقدتها مع ريتش حين جاءه العرض بعقد فى هذا البلد، وكان يريده - كم كان يريده - قلت «اعطنى ما أريد ، أعطك ماتريد» ولم لا ؟ هل ترضى كل امرأة أن تدفن حية فى مكان مثل هذا؟ وقع العقد ، واشترينا السيارة الجيب ، وبدأنا الرحلة عبر أوروبا ، وأثناء عبور فرنسا عملت على أن أحمل - ونجحت . كان أمله أن يكون المولود بنتا ، وحين جاء شون ، تراجع تماما وذهب وأجرى عملية تعقيم حتى لا أستطيع أن أطلب منه طفلا آخر . تقول إنجى إن زوجها يريد طفلا ثالثا ، ويتحدث دوما عن هذا لكن إيلين قالت لى إن إنجى أخبرتها أنها تتعاطى حبوب منع الحمل وهى لاتريد أن تحمل لأن عرافة فى بلادهم قرأت لها الطالع وقالت إنها سوف ترزق بثلاثة أطفال ، وسيحزنها أحدهم حزنا لا شفاء منه . وهى تعتقد أنها إذا اكتفت باثنين فلن تتحقق النبوءة . لا أدرى. أنا لا أعتقد فى هذه الأمور ، لكنك أحيانا تسمع روايات - على كل حال، كان زوج إنجى مصرا على إنجاب ثالث ، وفى كل شهر يترقب ليرى إن كانت قد حملت، وهى تتعاطى الحبوب فى السر ، وتخبئها وسط ملابس ميلودى الداخلية ، وتعيش فى رعب من احتمال اكتشافه لها . هكذا الرجال المسلمون. لايكتفون بما لديهم من أبناء أبدا ، وأغلبهم يريدون الولد. لكن هذا الرجل كان يريد بنتاً . سألت إنجى كيف تأتى أنه يريد بنتاً فقالت إنه يعتقد أن البنات أكثر «رقة وحناناً» من الأولاد . بالإضافة إلى أن الولد ينتمى - فى الأخير - إلى زوجته بينما الفتاة تظل «حبيبة أبيها إلى الأبد» . ثم أضافت : «ولكن بالطبع نحن نؤمن أن كل من يأتى به الله فهو خير» . بالطبع .

هذا هو نوع الحديث الذى يمكن أن تجريه مع إنجى. هى أيضاً تعرف أخبار كل ما يجرى ، أو - كما هى الحالة فى الغالب - كل ما يكاد يجرى حولنا : الأطفال الذين كادوا يختطفون ، حوادث الاغتصاب التى لم تتم ، الفلبينيون الذين لم يعدموا بل تم ترحيلهم ، الألمان الذين فقدوا عقولهم . وبرغم ابتذالها ، كانت أما طيبة . كانا والدين طيبين . كنت تجدهما دائماً فى ملاهى الأطفال يوم الخميس الأخير من كل شهر - يوم العوائل - تجد هذا التركى الضخم ذا الشعر الأبيض ينزلق على الزحليقة العالية ، وميلودى الصغيرة فى حجره ، متشبثة برقبته ، بينما تلوح لهما إنجى ، وهى تضم كمال إلى صدرها ضاحكة .

الآن بالطبع ، لاتراهم هناك. فى الواقع ، لا تراهم فى أى مكان - بالرغم من أنهم مازالوا فى هذا البلد - بل فى هذا المجمع السكنى، هنا. والحقيقة، أن الكل يشعر بنوع من الحرج حين يراهم. كانت إيلين تقول دائما إنه غريب الأطوار، ولكنى لم أدرك مدى غرابته حتى سمعت قصة الفيديو. وهذا بالطبع كان مؤخرا. حين حدث ما حدث ، لم أكن قد رأيت إنجى لبعض الوقت. قللت كثيرا من زياراتى لها. كنت أصطحب شون إلى منزلهم - أتركه ثم أذهب لاستعادته. لكنى ذهبت تلك الليلة. أحسست بضرورة أن أذهب. وكان الهواء فى المجمع - كما سبق أن قلت - مليئاً برائحة الياسمين ، بل كان مثقلاً بها .

كانت الساعة الثامنة ، والأولاد الكبار مازالوا يلعبون خارج البيوت : يتسلقون السور الحديدى الذى يحف بمنطقة حمام السباحة ، ويجرون بين الأشجار ، يتهامسون ثم ينفجرون ضاحكين. كان من الضرورى أن أذهب. أنا أعرف أن أناساً كثيرين ذهبوا فى الليلة الماضية ، وكنت أرقب الذاهبين والعائدين طوال الصباح وبعد الظهر . نعم ، ربما تكون هذه عادة المسلمين ، أما نحن فنكتفى بإرسال بطاقة ، أو نذهب للجنازة. لكننى قررت أن من الأفضل أن أذهب حتى لا أبدو غير ودودة. لذلك انتظرت حتى آوى شون إلى فراشه ، وأخبرت ريتش،

وخرجت ، وفاجأني نسيم الليل بعطره. سرت ببطء : فلم أكن أدرى كيف أتصرف أو ماذا أقول عندما أصل. نظرت إلى أعلى ، فوجدت نوافذهم كلها مضاءة ، والستائر مفتوحة على اتساعها. صعدت الدرج ، وتناهى إلى سمعى صوت أدركت أنه ترتيل القرآن ، فطرقت الباب ، وفتح لى أحدهم ، ودعانى للدخول. وجدت نحو عشرين رجلا يجلسون صامتين فى دائرة حول جهاز تسجيل. وفى ركن مستتر ، رأيت امرأة محجبة ، ترتدى السواد ، وتجلس على الأرض ، تنصت للتراتيل. وقفت لا أدرى ما أفعله ، فقامت المرأة من على الأرض ، وحيتنى، ورأيت أنها إنجى. فتحت الباب المؤدى إلى الجزء الداخلى من الشقة وأدخلتنى ثم أغلقت الباب خلفنا. جلست هى على الأريكة وجلست أنا على مقعد بجوارها. كانت الشقة تعج بالنساء. نساء وأطفال صغار. نسوة يجلسن ، يصنعن القوة ، يعددن الطعام ويقدمنه للرجال فى الخارج. وقفت إحدى السيدات فى المطبخ تغسل الأطباق وأخرى فى الحمام تطوى غسيلاً جف - وكلهن يلبسن السواد. لكن الأطفال كانوا بمثابة مساحات مشرقة من الألوان وسط السواد. كمال يلبس سروالاً أحمر وقميصاً أبيض، ويتعلق بساق أمه لحظة ثم يندفع نحو دراجة أخته الزرقاء اللامعة ذات العجلات الثلاث. وقع وبكى والتقطته إحدى النسوة تهدهده.

وأخيرا ، نظرت ملياً إلى إنجى. كنت مستعدة لأن أجد أنها كبرت سنوات خلال ليلة واحدة. لكن ماحدث كان العكس ، فقد بدت - فى الحقيقة - أصغر سنا من ذى قبل. ولا أدرى كيف تمكنت فى ثلاث وعشرين ساعة من إنقاص وزنها بهذه الصورة ، لكنها فعلت ، وبدت نحيفة وهزيلة فى فستانها الأسود القطنى: لاتضع مساحيق على وجهها ، وشعرها مشدود إلى الوراء ، ومعقود بشريط من المطاط ، وعيناها تحيط بهما هالات سوداء. وبدت بشرتها - ليس بشرة وجهها فقط ، بل يديها ، وذراعيها وقدميها وكل مايمكن رؤيته منها - بدت أكثر رقة وقريبة للشفافية. فقدت توازنها الداخلى ، وأصبحت حركاتها بطيئة ومرتبكة كفتاة فى سن المراهقة الأولى. عندما تجلس تلتف قدماها إلى الداخل مثل بنت مدارس

خجول أو دمية مكسورة. عيناها ملتهبتان. وعندما لمحتنى أنظر إليهما أشارت هامسة «ليس لدى دموع». كذلك لم يكن لديها صوت ، حتى الهمسة كان عليها أن تجاهد لإصدارها. بين اللحظة والأخرى كانت تختلج وتبدو على وشك الانخراط فى نوبة من النخيب ، لكن اللحظة تمر ويعاودها الهدوء وهى تجلس واضعة يديها فوق ركبتيها وقدماها متواجهتان. همست وهى تحدق فى يديها «الناس تعيش إلى الخمسين ، إلى السبعين والثمانين حتى ، وهى تعيش خمسين شهراً». تشير المرأة الجالسة بجانبها على الأريكة – امرأة مصرية سمينة تنضح عرقاً لايمكن التمييز بينه وبين الدموع – تشير إلى السقف ثم تفتح يديها وكفيها لأعلى. تهمس إنجى «لقد أعطاها لى. فلماذا يأخذها منى؟ لماذا؟» امتدت يد المرأة وربتت على يد إنجى وقالت «أنت مسلمة» . حشرج صوت إنجى وهى تجاهد لخرق جدار الهمس «أنا مسلمة. نعم. لكنها ابنتى» ثم دخلت فى إحدى نوبات التشنج القصيرة الخالية من الدموع. ربتت المرأة على يدها ثانية والتفتت وقالت عبارة بالعربية لابنتها الضخمة الجالسة وراءها فى ثوب سوقى من الدنتيلا السوداء. مدت إنجى يدها تحت وسادة الأريكة واستخرجت علبة سجائر. أسرعت ثلاث نسوة تركيات يحضرن لها طفاية. أطفأت السيجارة بعد أن جذبت نفسين وسعلت بشدة. تحرك ذراعاها الأبيضان – الخاليتان من الأساورة والخواتم (عدا خاتم الزفاف) – فى حركات مسرحية «لا أستطيع أن أصدق ، من الأمس وأنا أفكر : سوف تأتى من هنا .. سوف تجرى من هناك. أراها تجرى ، مازلت أسمع صيحتها – ماما – كل شىء حدث فى دقيقة واحدة. قتلتها. أنا التى قتلتها». ضربت بيدها على صدرها. جاءت امرأة تركية تقول إيلين انها أقرب صديقاتها من المطبخ ووقفت ترقبها دقيقة. أمسكت المصرية بيدها وقالت «لكن ماذا حدث؟ كيف حدث ذلك بالأمس» .

«بالأمس» همست إنجى ، مثل إنسان آلى قاربت بطاريته على الانتهاء : «كنا فى المنزل طوال اليوم. لم يهدأ الصغيران. أخذتهما إلى الممر التجارى. كان زوجى متعباً وقال إنه لن يستطيع أن يصحبنا. قلت لا بأس ، نمشى. اصطحبت صديقة

لى – تقطن فى الطابق الأسفل – ومعها طفلها ، لنذهب فى جولة ، نشترى (آيس كريم) للأطفال ، ثم نعود. وحين رجعنا إلى المجمع ، تذكرت أنه لم يعد عندى (سيريلاك) لكمال. قلت لصديقتى راقبى الأطفال، وسأعبر الشارع لإحضار السيريلاك –» نظرت حولها «لا أريد أن آخذ ميلودى إلى المحل. إنها دوما تطلب الشوكولاتة والحلوى وأنا أعتقد أن ذلك ضار لها – وافقت صديقتى وعبرت الطريق. وفجأة سمعت ميلودى: – ماما – التفتت – كانت تجرى نحوى – والسيارة أتت مسرعة .. ساد السكون هزت رأسها:» رأيته يصدمها ، رأيت السيارة تجرفها وتحملها إلى أن سقطت وأخذت تتدحرج وتتدحرج. الناس كلها كانت تجرى والرجل صاحب محل الزهور حملها وجرينا إلى المستشفى – لكنها ماتت» سقطت يداها على ركبتيها وتلفتت حولها ، نظرت إلى ، كانت عيناها تنطقان بالتساؤل والشك ، كأن أحدنا سيخبرها أنها على خطأ وأن ميلودى لم تمت. غمغمت المرأة التى تجلس بجوارها بالعربية ومسحت وجهها ، وبدأت امرأتان تركيتان – إحداهما بضفيرة ونظارة مستديرة وتحمل مولوداً سميناً ، والأخرى تبدو من الطبقة الموسرة ، بأظافرها المطلية بعناية وخاتم الثعبان الذى يغطى اصبعها كله – بدأتا فى البكاء فى مناديل ورقية من اللون الوردى. كانت إنجى تهتز يمنة ويسرة على الأريكة وكمال يستند إلى ساقيها ويقضم إصبعا من الخيار. كانت لعب ميلودى تملأ الغرفة و«موسوعة الطب المنزلى» ترقد فوق المكتب.

غادرت المكان ، وتلكأت فى الحديقة ، وكنت لا أريد – فى الحقيقة – أن أعود إلى المنزل ، وقلت مادام ريتش يعتنى بشئون هذه الليلة ، سأذهب إلى إيلين. لم أستطع البقاء معها طويلاً لأن زوجها (مايك) كان موجودا ، لكنى أخبرتها بما شاهدته فى بيت إنجى فقالت : «إنه لايخرج أبداً فى العطلات. هو يعمل طوال الأسبوع وينام فى كل العطلات. والصغار لايهدأون» ولكنى – كما سبق وقلت – رأيته مرات فى مدينة الملاهى ..

عندما تركت إيلين قررت أن أخرج من المجمع ، وأعبر الشارع وأشترى بعض الزهور : ستكون مفاجأة لريتش ، حيث إني لا أفعل مثل تلك الأشياء كثيراً، لكنها فقط بمثابة تعبير عن امتناني لعنايته بشون .

عبرت الشارع. لاتوجد أى آثار على الطريق ، لايوجد التواء بأعمدة النور ولا (كوردون) من رجال الشرطة. لاشىء ينبىء أن حدثاً غير عادى قد وقع بالأمس هنا. بائع الزهور كان لبنانياً به نعومة ، ولم أكن أستلطفه . قال : «هل رأيت ماحدث ليلة أمس؟ ...» .

قال : «لقد شاهدت الأمر كله. لم ير أى شخص المشهد بوضوح مثلى» .

تخيرت خمس وردات حمراء وبدأ هو ينزع عنها الأشواك والأوراق : «كنت أقف بالباب هنا. ورأيت السيدة تعبر الطريق. إنى أعرفها. وكثيراً ما أراها. دائماً مع الأطفال. فى هذه المرة رأيتها تعبر الطريق. والسيدة الأخرى تنتظر مع الأطفال، ورأيت البنت الصغيرة: رأيتها تنادى – ثم تجرى. تلتفت الأم إليها وتأتى السيارة و– (بوم)–» بقبضة يده اليمنى ، يلكم كفه اليسرى كفة لكمة قوية : «– فقط (بوم) حملتها السيارة مسافة أربعة وعشرين متراً. الأم على الجزيرة بمنتصف الطريق. يداها ممدودتان – لكن الصراخ جاء من الفرامل والإطارات–» وضع الورد بعناية فوق ورق (السوليفان) وانحنى ليلتقط بعض الفروع الخضراء ليضعها معه :

«بدأت فى العدو. كانت السيارة قد أسقطتها ، وبدأت هى فى التدحرج إلى أن وصلت إلى ذراعى هكذا. كان الدم فى كل مكان. حملتها ، تدلى رأسها وكانت العينان مقلوبتين فلا أرى منهما سوى البياض. لكنها كانت تتنفس ضممت رأسها إلى صدرى وعدوت بأقصى ما أستطيع من سرعة إلى المستشفى. كان الرأس ينفث الدم على جسدى فى دفقات. اليوم – أتعرفين – سألت صديقى الطبيب – الذى ألعب معه الشطرنج – كم تبلغ كمية الدم فى جسم طفلة فى الرابعة؟ قال

ربما أربعة لترات. أقول لك : لقد كان هناك على الأقل أربعة لترات من الدم على ملابسى أنا. هذا خلاف الدم على الطريق. والحق أنى وقتها لم أتنبه. حملتها إلى المستشفى ، لكنها كانت ميتة. فيما بعد - عندما عدت إلى هنا ، بدأت أشم الرائحة. نظرت إلى نفسى فوجدت أنى مغطى بالدماء .

لف بعض الورق المفضض حول سوق الأزهار ليبقيها منداة.

قلت : «سمعت أن أباها اندفع محاولا قتل السائق؟» .

«نعم. لكنهم أمسكوه. ماذا يجدى ذلك؟ كان بالفعل مسرعا - لكن كلهم هنا يسرعون. ولم يتوقع أن تجرى طفلة إلى منتصف الطريق فى العاشرة مساءً. هو الآن فى السجن وسيدفع تعويضاً - تعرفين : الدية» ربط شريطاً أبيض حول باقة الورد الملفوفة بالسوليفان :

«جاء الأب صباح اليوم ومعه كاميرا فيديو ، والتقط فيلماً للطريق. خرجت لأرى مايحدث فأجرى معى مقابلة. أرادنى أن أعيد تمثيل - بالضبط - ماحدث: هنا صدمتها السيارة هكذا ، وهنا قمت بالتقاطها هكذا ، وجريت هكذا - لقد صور فيلماً كاملاً لكل شىء هذا المسكين» .

أعطيته نقوده ، وذهبت إلى المنزل بالورود. وضعتها فى (فازة) وأخبرت ريتش بالأمر كله لكنه كان قد انخرط فى قراءة كتاب ، ولا أعتقد حقاً - أنه كان يود السماع. لكن إيلين تود السماع ، فذهبت لزيارتها فى الصباح التالى بمجرد أن أركبت شون سيارة المدرسة. وطوال فترة الحديث كان لدى شعور بأنها تخفى أمراً ما. وبالفعل ، ما أن أنتهيت حتى قالت :

«وهل تعرفين ما فعله الأب بعد الظهر؟ ذهب إلى المشرحة حيث كانوا يغسلون البنت ويعدونها والتقط صوراً للعملية كلها» .

«ولكن كيف سمحوا له» .

«قالوا إن الرجل المسكين فقد عقله من الحزن ومن الأفضل تركه يفعل مايريد – بالإضافة إلى أنهم خافوا منه ، فهو ضخم الجثة وعنيف. وتعرفين ماذا فعل في المساء ، بعد ذهابك وذهاب الآخرين ، ولم يبق في البيت – خلاف الأسرة – سوى الصديقة الأعز لإنجي ؟ .

مالت إيلين إلى الأمام وذراعاها متكئتان على ركبتيها :

«أجلس إنجي وأرغمها على مشاهدة الفيلمين : الفيلم الذى صوره فى الطريق، والآخر الى صوره فى المشرحة. ثم عرض أمامها الفيلم الذى صوره فى عيد ميلاد ميلودى الأخير. قال إن ماحدث كان مسئوليتها وأنها يجب أن تعلم هذا وتشعر به تماما» .

لذا أقول إنه غريب الأطوار. غريب – على كل حال – بالنسبة لى. يقولون إنه يريدها أن تحمل فى الحال لتهبه بنتاً أخرى. وأنه لايسمح لها باصطحاب طفلها كمال خارج المجمع لأنه لايأتمنها عليه .

ظلت ميلودى بالمشرحة أسبوعاً إلى أن حصلوا على تأشيرة خروج لها. أخذ هو إجازة من عمله ، وسافروا جميعاً إلى تركيا كى يدفنوها فى بلدتهم. إيلين تعتقد أن هذه سفاهة ، ولكنى أفهم أنهم لايريدون ترك الصبية تدفن هنا وهم سيغادرون المكان فى النهاية. وقد مروا بوقت عصيب بسبب تلك الموجة الثلجية التى دامت خمسة أيام وغطت تركيا والأردن بالجليد ، واستغرقت الرحلة من المطار إلى بلدتهم عشر ساعات. وعلى العموم ، فى هذه الظروف ، الجليد أفضل من الحر بالتأكيد. على أى حال ، لقد أخبر كل من فى البلدة أن اللوم يقع على إنجى. ورغبت هى أن تبقى مع أمها قليلاً ، لكنه أعادها معه ، لأنه لن يترك كمال فى رعايتها ، ولأنها يجب أن تحمل من جديد. وهم الآن هنا ، والموقف كله شائك جدا. لايعرف أحد بالضبط كيف يحادثهم ، فنتجنبهم كلنا بقدر المستطاع. الكل – فى الحقيقة – يرى أنهم يجب أن يغادروا. ولكن الرجل أمضى أربع سنوات فقط وعليه أن يبقى عاماً آخر كى يستحق المكافأة. نحن جميعاً نفهم ذلك ، لكننا

لانفهمها هى ، كيف يمكنها أن تعبر هذا الطريق دون أن تفكر فى ميلودى؟ كيف يمكنها أن تسير فى الحديقة؟ أو تحيا داخل الشقة؟ .

تلك الليلة ، مالت نحوى وقالت :

«لقد كانت..» ثم التفتت إلى المرأة التركية ذات النظارة وسألتها شيئاً بلغتها ، وبدا أنه مهم جدا . فكرت المرأة لحظة ، ثم قالت فى جد : «غير أنانية» .

«نعم» همستها انجى لى بحماسة: «كانت طفلة طيبة ولم تكن أنانية. كانت طفلة طيبة» .

قلت : «إنى آسفة. آسفة جداً» .

أخذت تحدق فى السجادة ،

«كانت ابنتى صار بيتى الآن خالياً» .

ربتت على ركبتها – الركبة التى لم تكن المرأة المصرية تربت عليها : «عندك كمال» .

نزلت بعد ذلك بقليل. كان بعض النسوة يغادرن، وأخريات يأتين، وزوج إنجى يخطط لعرض أفلامه. حين خطوت خارج المبنى بدا النسيم منعشاً ورائحة الياسمين أكثر قوة. والأطفال مازالوا يتسلقون سور حمام السباحة ويطنون بالحديث وأذكر أنى فكرت فى حيرة : كيف أسوق النبأ إلى شون؟ .

شى ميلو

تجلس ميلو خلف ماكينة صرف النقـــود ، تغطى ركبتيهـــا بطانيـــة من الصـــوف الكاروهات رمادية اللـون ، وفوق البطانية تجلس أتينـا ، وهى كلبة مرتاحـــة ، لونـهـا أشـبـه بالجلد الفـــاخر ، ناعمـــة ممتلئة ، لكنهـا – دون شك – تقدمت فى السن ، يبدو هـذا واضحـــاً فى عينيهـــا . أحيانـاً تغامر بالنزول إلى الأرض ، وتقف برهـة بين أقـــدام الجرســـونات ، فتثيـر قلق ميلو التى تنحنى لتبحث عنهـا . تناديهـا ، فتهـرع أتينا عائدة إليها ، ويمـر أحـــد الجرســـونات – وغالباً مايكون صيـام ، النـوبى العجـوز – فيلتقطهـا، ويعيدهـا إلى حجـر سـيدتها . ميلو تحتضن أتينا وتداعبها طـــول اليـــوم. سـمـنت أصابع ميلـو ، وفقدت مرونتـهـا ، لكنها مازالت تطلى أظافـرها ، وتتـزين بالخـواتم الروســية الثـمـينــة التى ورثتـهـا عن جدتها .تنتشر على يديها بقع الكبد البنيــة الصغيرة ، وترتعش اليد فى تفنيد النقـود وعدها . ثقيلة هـــذه اليد على ظهـر أتينا المتد الناعم ، تربت عليه ، وتداعب الأذنين المتدليتين ، وتحك الجبين المقطب ، والكلبة العجـوز تحـمحم بصوت خفيض .

كان يمكن لميلو أن تتـزوج فيليب ، لكن ذلك الزمـن مضـى – تقضى ميلو نهارها ترقب الستائـر الحمـراء القديمـة التى تحجب مدخـل المطعم . تعرف كل زبائـنها ، رغم أنـهـا لا تبش فى وجوههم أبـداً ، بـل تكتفى بإيمـاءة جافـة للزبائن القـدامى ولضيـوف المطعم المنتظمـين . أحـيـانا ، يدخـل شـبـاب من السيـاح مصـادفـة ، ويحطون أحمـالهم عند البـاب ، ويتسـاءلون ، ويختلقون القصـص حـول هذه المرأة الكبيرة ، المتجـهمـة ، مخضبـة الشعـر بالحناء ، والتى لا تبرح مجلسها أبـداً . ولكن – وبرغم العبـوس الخفيف الـذى يكسو مـلامحـهـــا حين تغيب فى أفكارهـا – يجد الزبائن فى حضـرتها نوعاً من العذوبة فيعودون .

إلى يسارها ، وفى الخلف قليلا بحيث لا تراه إلا إذا أدارت رأسها ، يجلس الخواجة فاسيلاكس إلى طاولة مستديرة ، بجانبه زجاجة من النبيذ الأحمر ، وأمامه – على بوفيه صغير لأدوات الطعام – جهاز تليفزيون أبيض وأسود ، يرسل صورا متراقصة صامتة . قارب الخواجة فاسيلاكس التسعين ، وغاب عنه معظم الأصدقاء الذين اعتادوا مجالسته ، ومشاركته النبيذ ، والشكوى من جهاز التليفزيون الصامت وصوره المتراقصة . ميلو ، فى العادة ، تعرف بالضبط ما يفعله والدها ، رغم أنها لا تحيد عن النظر أمامها . أما اليوم ، فالخواجة فاسيلاكس هو المتنبه إلى ما يدور فى ركن ابنته ، فقد أضيفت مائدة إلى طاولة الحساب ، وغطيت بمفرش أبيض نظيف ، ووضع مقعد خال إلى جوار كرسى ميلو.

اليوم ، ترقب ميلو الستائر الحمراء بهدف ، فهى تتوقع صديقة لها . إن فرح، فى الحقيقة ، أصغر سنا من أن تكون صديقة لميلو : أمها ، لطيفة ، هى صديقة ميلو : بدأت صداقتهما حقا فى ليلة زفاف لطيفة . ميلو لم تعد ترتعد ، ولا تحس بالسخونة تصعد إلى رأسها ، ولكنها تتذكر . تتذكر المشاعر التى ظلت لسنين تتفجر فيها إذا مرت على خاطرها هذه العبارة البسيطة : مشاعر التعاسة والخزى . يقشعر بدنها ، فتسرى الرجفة من ظهرها إلى كتفيها ، ثم إلى ذراعيها، حتى تستشعر صداها فى أطراف أناملها . وذلك الثقل البارد فى معدتها ، تضغط عليه ، تدلكه ، تعجنه ، ليصير شيئا باستطاعتها تحمله – إلى حين . ليلة زفاف لطيفة : حين هرولت ميلو هابطة سلم الخدم المظلم ، إلى شقة إسماعيل مرسى ، لتجد ابنته ، العروس ، فى الحمام تخلع طرحتها وتزيل الشنيون المثبت فيه شعرها وهى تغمغم أمام المرآة :

«أكره هذا ، لا أطيقه – وهو أيضا لا يطيقه – سنرتدى هذه الملابس السخيفة ونجلس فى الكوشة حيث يحدقون فينا كأننا قرود فى الجبلاية ، لكنى لا أشعر أنى

(أنا) وهذا الشيء على رأسي. لن ألبس طرحة -». عندئذ التفتت لطيفة فرأت ميلو. خطت إليها ، أخذتها من يديها ، وأجلستها على حافة البانيو . أغلقت الباب بالترباس ، وسقتها ماء باردا ، وحكت لها ميلو كل شيء. وبدا لميلو وقتها أنه لم يبق أمامها سوى الموت ؛ إذ كيف يمكن أن يطلع عليها نهار جديد ؟ واليوم ، تبدو الحكاية كلها مثل فيلم قديم : فيلم أثار مشاعرها ، لفترة من الزمن .

وقع نظر ميلو على فيليب لأول مرة ، فى فرح إحدى الصديقات ، وسط الزغاريد ورنين الصاجات فى الكنيسة اليونانية بشارع الملكة . كانت ميلو فى العشرين من عمرها ، طويلة ، جميلة ، متينة البنيان. يحتسى أبوها كأسه الأخيرة، بعد أن يغادر الزبائن ، ويرقبها، وهى تخطو هنا وهناك فى المطعم المعتم، تطوى المفارش البيضاء ، لتعود بها إلى فهيمة تغسلها فى البيت . يخبرها مرارا أنها ورثت عن أمها ساقيها الطويلتين القويتين ، وشعرها الكستنائى الغزير ، ويبدو حزيناً وهو يسوق هذه الملاحظة . يهز رأسه ، ويعود يحدق فى كأسه ، ويعض على أطراف شارب دب فيه المشيب . تعلم ميلو أن أمها ، فرنسية الأصل ، كانت راقصة ، وجميلة - ربما لم تزل ! هجرت زوجها ، وطفلتها الرضيعة ، من أجل - ويا لبشاعة ما اختارته - جندى تركى . تركى أسود العينين ، مبروم الشوارب ، نزل يختال من سفينته ، ذات يوم ربيعى جميل من عام ١٩٢٧ ، ودخل مطعم أكروبول بالإسكندرية ، ليتسبب فى خراب بيت ثيوفيلوس فاسيلاكس . وبعد ثلاث سنوات من التوعد بالبصق فى وجه العاهرة إن جرؤت على الظهور فى الإسكندرية ، والوعد بالعفو التام والكريم إن هى عادت - فهى على كل حال أم طفلته - لم يعد ثيو يحتمل المدينة . باع الأكروبول واصطحب ميلو وفهيمة - الخادمة التى ترعى شئونهما - إلى القاهرة . قاوم كل الضغوط لتزويجه مرة أخرى ، وفتح مطعما فى شارع عبد الخالق ثروت ، أسماه (شى ميلو) عرف عند أهل المنطقة بـ (شاميلو) وتطلع إلى اليوم الذى تكبر فيه ابنته ، وتصبح شريكة له. وها قد شبت ميلو ، وصارت تعمل فى المطعم ، وتضفى عليه من بهائها ، وثيو

يرقبها باستمرار ، وبداخله رعب من ذلك الصعلوك المغامر الذى قد يأتى يوما ليوقعها فى حبائله ويحطم حياة أبيها - المتماسكة بالكاد - للمرة الثانية والأخيرة. بالطبع سوف يكون مغامرا . انظر فقط إلى هذه الفتاة ذات الساقين المشوقتين ، والخصر الناحل ، والظهر المستقيم ، والجبهة العريضة فوق عينين خضراوين متسعتين ، والشعر الكثيف الرائع ، لترى ابن الكلب داكن البشرة ، مفتول العضلات ، الذى سوف يغويها ، داعر تفوح منه رائحة التبغ والعرق . يرتجف كرش الخواجة فاسيلاكس رعباً وقرفاً ، وهو يمضغ شاربه .

لكن ميلو لمحت فيليب وسط البخور والشموع الموقدة فى الكنيسة اليونانية ، فرأت الفتى - وكان من الصعب أن تسميه (رجلا) بعد - أشبه بالملاك فى سكونه وجماله . كان يجلس فى الطرف الأقصى من الجانب البعيد - جانب أهل العريس، منعزلاً عما يدور حوله ، فبدا مختلفا عن صنف البشر : بدا كأيقونة من الأيقونات البيزنطية تضوى على الجدران : شاحب ، رقيق الملامح ، يعلو جبهته البيضاء شعر أسود لامع . أنفه صنعه مثال قدير ، وفمه واسع ، وشفتاه رقيقتان زاهدتان. لم تستطع ميلو تمييز لون عينيه . به صفاء وسكون ، والضوء ينسل من رأسه إلى الكنيسة المعتمة . ووقعت ميلو فى الأسر .

ولما لم يكن لها أم تقوم بما ينبغى فى هذه الظروف ، قامت ميلو نفسها بالسؤال عنه ، وجزعت قليلا حين عرفت أنه فى السابعة عشرة . وأنه لا يزال تلميذا بمدرسة الفرير ، لكنها خلقت فرصة للتعارف ، فوجدت أنه أطول منها بعدة سنتيمترات ، وأن عينيه رمادية خضراء ، وأن صوته رخيم وأن لهجته الفرنسية أرقى من لهجتها ، ولغته العربية أضعف من لغتها ، كما وجدت أن وجهه يبقى على ضيائه حتى عن قرب . وخيل لها أن هناك شيئاً غير عادى - شيئاً شبه إلهى - يكمن داخله . تاقت إلى الاقتراب ، إلى لمس ذلك الوجه المضىء بعظامه المحددة، تاقت إلى أن تستقر بأطراف أصابعها فى ذلك المنحدر البسيط حيث تنتهى

العينان بأهدابهما السوداء الناعمة . اكتشفت أنه إبن الخواجة ينى بنايوتى البقال. فهو جار أحد أصدقاء أبيها القدامى إسماعيل مرسى ، الذى يملك مصنعا للأثاث فى العتبة الخضراء .

أحنى فيليب رأسه قليلا ، وكأنه يجزع أن تفوته كلمة واحدة من كلماتها ابتسم ، وقالت عيناه إن شيئاً رائعا قد حدث . وميلو مأخوذة من نفسها : لم تشعر أبدا بمثل هذا الضعف الفياض ، هذه الطاقة المتقدة ، هذا التواصل المباشر الذى لا يحتاج إلى الكلمات .

كان العام ١٩٤٦ ، وجنود الحلفاء المنتصرون ينتشرون فى المدينة . وسعد الخواجة فاسيلاكس بفطنة ابنته حين اعلنت أنه ما دام العمل يسير جيدا ، فمن الحمق أن يشتروا احتياجاتهم بالقطاعى من المحلات المجاورة : من اليوم ستشترى كل ما يحتاجونه مرة واحدة فى الأسبوع ، من محلات الجملة .

تقع بقالة الخواجة ينى بنايوتى فى بين السورين ، هذا الطريق الواسع الذى ظل لفترة قريبة يمتلئ سنويا بمياه الفيضان فيستحيل إلى نهر . لم تبعد ميلو عن شارع ثروت إلى هذا الحد من قبل . وفى أول مرة ، ذهبت معها فهيمة ، التى تعرف كل طرق وحوارى المدينة . سارت المرأتان فى شارع فؤاد ، تتفرجان فى فتارين المحلات الكبيرة ، ثم عبرتا ميدان الأوبرا ، تلامسان طرف حديقة الأزبكية، وعبر دوامة ميدان العتبة الخضراء ، إلى شارع الموسكى . بدأت فهيمة تشير إلى محلات البقالة التى تمران بها ، لكن ميلو لم ترض بأى منها ، فهى مصرة على الذهاب إلى متجر ينى بنايوتى ، وهو أبعد المحلات كلها . وفهيمة ، التى ليست صغيرة ولا ساذجة ، تتلاحق أنفاسها وهى تسرع لتجارى ربيبتها ، ويبدأ يداخلها الشك . ما السلعة التى تدفع فتاة تتزين عادة بالعقل ، أن تسير بكل هذا الحماس إلى آخر بلاد الله هكذا ؟ ليس هناك سوى إجابة واحدة .. زمت فهيمة شفتيها ، ولمت ملاءتها حول جسمها وهى تلهث خلف ميلو .

كان ينى بنايوتى رجلا طويلا ، عريضا ، ذا شعر أشعث، كثيف ، أسود اللون، تشوبه خطوط من الفضة . وقد وازن انحسار الشعر عن جبهته العريضة بالإفراط فى إطلاق ذقنه وشاربه . أعجب بالمرأتين وأجلسهما فى متجره المظلل الرطب ، وقدم لهما الشاى وأصابع الشوكولاته . وأضحت ميلو تتجه إلى بين السورين صباح كل أحد . ذهبت مرة ، ثم ثانية ، وفى الثالثة كان هناك . يساعد أباه فى رص صفائح الجبن الأبيض . رشفت ميلو شايها الساخن ، وراقبت ظهره العريض ، تتحرك عضلاته داخل القميص القطنى الأبيض ، وهو ينحنى ، ويستقيم، ويرفع الصفائح ويضعها ، استرقت النظر إلى البنطلون الرمادى يتشكل على جسده وهو يجلس القرفصاء لحظة أمام الجبن – فعضت على شفتيها ووجهت بصرها إلى الأرضية المغطاة بنشارة الخشب . وعندما انتهى من عمله ، أخرج فيليب من جيبه منديلا نظيفا أبيض ، ففرده ، وجفف جبهته ورقبته . رفض الشاى، ورد على أبيه بطريقة شبه رسمية «سأترككما تواصلان العمل» . انحنى على يد ميلو : «تشرفنا .. فرصة سعيدة جدا» . ابتسم فى عينيها وغادر المكان . التفت ينى لميلو هازاً كتفيه ومادا ً يديه على اتساعهما ، فرأى على الفور العاطفة التى تحملها الفتاة لابنه فى بشرتها المتوهجة وجلستها الجامدة . آه ، فلهذا تأتى يوم الأحد ، دائما يوم الاحد ، لقد أوقد فيليب الصغير ناراً .

«ويالها من نـــار –» قال لزوجته فى المساء : «الفتاة جميلة ، وشعرها مشتعل –» .

مطت نينا شفتيها ، وقطبت لزوجها – هذا الزوج الذى – اليوم وبعد أن زوج بنتين وشب ولده حتى صار له شارب – مازال قادرا أن يغازلها ، ويلاعبها ، فيعود بها إلى الفراش فى صباح يوم الإثنين والمحل مغلق والولد فى المدرسة ونينا ترتدى روبها المنزلى المطبوع بالورود ، يحيطه حزام يبرز صغر خصرها الرقيق . تتطلع إلى الخزانة الخشبية المعلقة فى الركن فوق سريرهما ، وبداخلها طرحة

الزفاف والتاج من أزهار البرتقال ، وتسأله إن كان من اللائق أن يتصرفا كعروسين فى شهرالعسل فيغلقان الشيش فى الصباح بعد خمسة وعشرين عاما من الزواج ؟ ماذا يقول الجيران ؟ والخواجة ينى يحك شاربه وذقنه فى رقبتها ويهمس : «يقولون الخواجة العجوز مازال مجنوناً بها – وهم على حق ، أليس كذلك؟ أليس كذلك ياصغيرتى ؟» وتحيطه نينا بذراعيها فى رقة ، وتتركه يحبها ، وتدبر فى ذهنها الأكلة الشهية التى ستعدها لغذائه . مطت نينا شفتيها وركزت نظرها فى قطعة التطريز الفرنسى فى يدها : الفتاة كبيرة ، تكبر فيليب بأربع سنوات . يجب ألا يتساهل ينى فى مثل هذه الأمور . الرجل يضيق بسهولة بالزوجة التى تكبره سناً . لكن من ناحية أخرى ، البنت وحيدة أبيها : ليس لديها أم تثير المشاكل – والخواجة فاسيلاكس – أطال الله عمره – يورثها مطعما يكسب جيدا ، فى موقع مهم من المدينة .

استمر النقاش – واستمرت زيارات ميلو لمحل ينى بنايوتى . تخرج فيليب من الفرير والتحق بكلية التجارة ، وفى صباح كل أحد تعبر ميلو وسط المدينة إلى مخزن البقالة فى بين السورين ، وتشرب الشاى مع الخواجة ينى وتؤجر حنطوراً ليحملها ، ومعها المشتريات ، عائدة إلى شارع ثروت . تكاد تفقد الحماس .. يكاد اليأس يتسلل إلى نفسها .. ثم تراه ، تراه فيشتعل القلب ، ويتجدد اليقين: إنه ينوى أن يفاتحها . تلتقى نظراتهما ، وفى كل مرة يبدو اللقاء وكأن مدته تزداد بمقدار جزء من الثانية – جزء ذى دلالة – ترى ابتسامته قد حملت سؤالا، سؤالا تتوق للرد عليه !

إلى أن جاء يوم فرح لطيفة .

قبل الفرح بأيام ، جلست فهيمة على الأرض عند قدمى ميلو ، تمسك بشفتيها مجموعة من الدبابيس ، ويفيض حولها قماش التفتاه الأخضر . أخرجت الدبابيس من فمها وقالت :

"يا تطلعيه من عقلك ، يا تشوفيلك صرفة . الست الناصحة تتصرف. ثلاث سنين فاتوا ومش واخدين منك غير كلام – النهاردة ضغط على إيدى – إمبارح جت عينيه فى عينيا – إيه ياختى الكلام الفاضى ده ؟ هو لعب عيال ؟ ده ما عادش صغير – مش دخل الجامعة ؟ يمكن مالوش فى الستات ؟ ما هو انتو منكم كتير كده يا جريج – بس لأ – شايفة أبوه ؟ شايفة الخواجة بنايوتى ؟ أدى الرجالة – راجل ملو هدومه صحيح – بس انت مش حتقعدى العمر كله مستنياه – ما بيتكلمش ؟ إنت لكى لسان . ناوشيه يابنتى – شوفيه طينته إيه – »

للوصول إلى السطح المقام فيه الفرح ، يمر الضيوف خلال شقة إسماعيل مرسى ، فيخرجون من باب مطبخها ، ليصعدوا إلى السطح على سلم الخدم الحديدى ، غسل البواب درجاته السوداء حتى صارت تلمع فى الظلام ، صفائح القمامة الموجودة عادة على البسطة ، أدخلت الليلة إلى المطابخ ، فيئست القطط وصعدت إلى السطح تستكشف إمكانيات العشاء ، السطح الواسع مزدان بالأنوار الملونة ، رصت فيه الكراسى ، وفرشت الأرض بالسجاد ، وامتلأت الكوشة المنصوبة فى نهايته بسلال الورود . تعلو دقات الطبول ، ويصدح صوت الأكورديون ليسمع الحى كله ، ويدور السفرجية بالصوانى الفضة محملة بأكواب الشربات الأحمر والملبس . استأذنت ميلو من ثريا – اخت العروس ، وانسلت خارجة . حاولت – فيما بعد – أن تحدد ما دفعها لاختيار تلك اللحظة بالذات للخروج ، لكنها لم تفلح . تذكر فقط كيف أنها مالت ، وهمست لثريا ببعض الكلمات ، وتبادلت النظر مع فهيمة – وهى تجلس متربعة على الأرض ، تتحدث مع خادمات أسرتى العروسين – ثم رفعت ذيل ثوبها من الأرض واتجهت إلى السلم .

عند استدارة السلم الحديدى ، رأت ميلو رجلا يصعد فى الظلام نحوها ، توقفت فى مكانها وواصل فيليب الصعود دون أن ينتبه . ثم بدا أنه سمع حفيف فستانها، أو ربما شعر بأنفاسها ، فتوقف . نظرإلى أعلى – وها هى ترى مرة أخرى تلك الابتسامة التى لا تكاد تظهر على الشفتين ، إنما تشع من العينين فقط: -

«بونسوار»

لم تبد ميلو فى عمرها كله مشرقة كما بدت فى تلك اللحظة ، وهى تلملم ثوبها الذى ينطق بهمس ناعم كصوت أوراق الشجر ، وذراعاها العاريتان تضويان على صدر القماش التل الأخضر . التحية التى صدرت عنها رقيقة لاتكاد تسمع . وقف فيليب إلى جانب السلم ليسمح لها بالمرور ، فليس من اللائق التلكؤ على السلالم . رفعت ميلو ذيل فستانها وخطت نازلة ببطء ، ودقات الطبول تنبض حولها فى ظلام بئر السلم . وصلت إلى فيليب واستدارت لتمر بالجنب نظرا لضيق الدرج – ثم توقفت : متقاربان بحيث احست بصدرها يلمس صدره ، وبأطراف تنورتها تحف بساقيه . رفعت ميلو وجهها فنظرت عيناه فى عينيها . همست باسمه وتركت يدها قماش الفستان ، واستقرت بخفة على خده .الآن ، الآن بالتأكيد سوف – لكن فيليب – وكان مهذباً فلم يخط إلى الوراء ، وقف دون حراك . تراجعت يد ميلو فطارت إلى وجهها ثم إلى رقبتها ثم أمسكت بذيل الفستان وهى تستدير مسرعة ثم تجرى على الدرج لتدخل إلى الحمام حيث كانت لطيفة تنزع المشابك من شعرها .

نظرت ميلو بعبوس نحو الستائر الحمراء وهى تفتح لتسمح بدخول شابة جميلة ترتدى فستاناً قطنيا أبيض بأكمام قصيرة ، وترفع نظارتها الشمسية إلى قمة رأسها ، فتزيح بها شعرا حالكا ينسدل إلى كتفيها .

«فرح !» تبسمت ميلو ومدت يديها ، فاستيقظت أتينا وزمجرت ، وهتفت فرح :

«طنط ميلو ! وانحنت لتحضن كتفى ميلو وتقبلها فى وجنتيها .

أخذت فرح مكانها إلى جوار ميلو وطلبت ماء مثلجا وجلست تروح على وجهها بعدد من مجلة الإذاعة وتداعب أذنى اتينا وتطلق الشكوى المعتادة من الحر وصعوبة ترك السيارة فى مكان ملائم :

«تركتها فى الأوبرا ومشيت من هناك . مالقيتش حل غير كدة . وأدينى حاروح بعد كدة عند طنط ثريا -» .

«هى لسة فى بيت جدك - الله يرحمه ؟ »

«طبعا . دى من الحاجات القليلة التى لا تتغير ، الحمد لله . البيت هو هو ، وكل حاجة زى ما هى - حتى سرير جدى لسة فى مكانه . آه - » تتذكر فرح :

«أقوم أسلم على مسيو فاسيلاكس ؟ والا أبقى بازعجه ؟» .

«لا تتعبى نفسك ، لن يعرفك على أي حال . أصبح (تايه) أكثر بعد أن ماتت فهيمة : كان متعود عليها »

«ربنا يديله طولة العمر . »

«آه - » أومأت ميلو :

«ما هو إداها له فعلا »

سألت فرح فى تردد :

«صعب عليكى يا طنط ميلو ؟»

ظلت ميلو صامتة، ترقب أصابعها التى استقرت على ظهر أتينا. وقفت فرح .

«سأذهب لأحييه» .

لم تلتفت ميلو لترى ضيفتها تنحنى على أبيها وتهتف باسمه فى رقة. نقل الخواجة عينيه - حمراء الحواف. تترقرق فيها دموع دائمة - من لوحة الزهور على شاشة التليفزيون ونظر إليها.

«أنا فرج يا مسيو فاسيلاكس، هل تذكرني؟»

أومأ فاسيلاكس بالإيجاب عدة مرات في هزات سريعة، وعاد إلى التليفزيون، يقول :

«لم يغيروا هذه اللوحة منذ ثلاثة أيام. بين كل برنامج وآخر هذا ما نحصل عليه. عندهم لوحات أخرى. عندهم واحدة بها بعض الأشجار ومجموعة من البجع الأبيض. تعرفينها؟ يده المرتعشة ترسم في الهواء علامات البجع والاحتجاج.

«لكنهم يعرضون هذه منذ ثلاثة أيام . الإنسان يمل هكذا». راقب الأزهار في استسلام متذمر. توقف عم صيام وقال برقة :

«الخواجة بخير يا ست فرح. روحي اقعدي مع ست ميلو، وشوفي عايزة تتغدي إيه.. الفتة حلوة قوي النهاردة» !

«أنا حاكل فتة يا عم صيام ؟» .

«وليه لأ ؟ أجلي الريجيم النهاردة ودعيني أنا أنقي لك الغداء» .

عادت فرح الى مجلسها . غطت أتينا في النوم، ورفعت ميلو بصرها وابتسمت:

«قوليلي ياشيري ، كيف حال ماما ؟» .

«الحمد لله» ، قالت فرح :

«جاءني منها جواب من يومين. أعتقد أنها سعيدة حيث هي بعيدة عنا جميعا» .

«خسارة بقاؤها بعيداً هكذا.. خصوصا الآن وأنت محتاجة لها» .

«فعلا . ساعات كتير أحس اني عايزة أتكلم معاها . لكن طنط ثريا بتساعدني جدا، وأنا الحقيقة أرتاح في بيت جدي ، الله يرحمه، أكتر من أي مكان تاني» .

«كنت دائما طفلة ثريا الحبيبة» .

«ألن تتناولى طعام الغداء أم ماذا ؟» وقفت فرح، وكان مسيو فاسيلاكس واقفا أمامها، يوجه الكلام إلى ابنته :

«إذا كنت لن تأكلى ، قدمى لصديقتك شيئا على الأقل» .

نظرت فرح الى ميلو وأجابت بسرعة :

«عم صيام سيحضر لى الغداء حالا . ألن تشاركنا يا عمى ؟»

دار الخواجة بعينيه، يبحث عن السفرجى ويغمغم :

«خلاص . لا فائدة منه ، هذا العجوز أصبح خرفا» .

أحضرت فرح كرسياً من المائدة القريبة :

«تفضل يا عمى : إجلس معنا» .

إنها الآن بين ميلو وأبيها الذى عاد يكرر :

«أين طعام ضيفتك ؟»

اختلست فرح النظر الى وجه ميلو الجامد، وتصاعد داخلها القلق: صدى صوت جدها، إسماعيل مرسى، النبرة التى طالما سمعته يستخدمها مع الإبنة التى عادت لتعيش معه، تعتنى به وترعاه، والتعبير على وجه ميلو هو مارأته مرارا على وجه طنط ثريا .

ظهر عم صيام :

«أيوة كدة ياخواجه» أشرق وجهه الأسمر بابتسامة واسعة :

«أقعد مع السيدات وأعط التليفزيون إجازة . هو فيه حاجة غير الكلام الفارغ؟ وكله متكرر على أى حال» .

وضع الأطباق أمام فرح :

«حاروح أجيب زجاجة النبيذ للخواجة . خذى كأسا معه يا ست ميلو» . هزت ميلو رأسها بالرفض . وضع صيام الزجاجة والكأس المملوءة إلى النصف على المائدة .

«تفضلوا بالهناء والشفاء» . ابتسم لفرح :

«أنستينا ونورتى المحل» !

«وماذا عنك يا صغيرتى ؟» داعبت ميلو رأس أتينا، وواصلت الحديث وكأنه لم ينقطع :

«هل أنت – أيضا – تفضلين الحياة بمفردك ؟»

«ياه يا طنط ميلو» – تنهدت فرح وهى تتناول قطعة من الكوسة محشوة بالأرز والخلطة : «صعب قوى الحياة هنا كسيدة مطلقة لم أدرك أنها ستكون صعبة هكذا» .

«علشان يا شيرى ماليكش بيت لوحدك» رفعت ميلو يدها عن أتينا لتربت على يد فرح : «لما يبقى عندك شقة سيكون الأمر مختلفا» .

«ولكنى لن أكون فى شقتى الخاصة أبدا» – وضعت فرح شوكتها على المائدة فى حركة يائسة .

«لكنك اشتريت شقة بالفعل» .

«أيوة . لكن صاحب العمارة لم يبدأ فى البناء بعد. الموضوع كله على الورق. وإذا بدأ غدا لن ينتهى قبل خمس سنوات. أنا عندى ثلاثين سنة يا طنط ميلو . ثلاثين . الحقيقة أنا لم أفهم أن المسائل بهذه الصعوبة» .

«كل حاجة صعب دلوقتى . كل حاجة» قالها مسيو فاسيلاكس، ثم وضع كأسه على المائدة ، ومال للأمام ويداه على ركبتيه :

«كل حاجة اتغيرت ، الحياة بقت صعبة ، صعبة جدا»، هز رأسه :

«زمان ، كنا نستخدم أربعة عشر صنفا من الأسماك لنصنع الشوربة . كنت أنتقى السمك بنفسى بالواحدة . النهاردة ماذا يمكنك أن تجد ؟ ثلاثة أو أربعة أصناف بالكثير. مستحيل أن تصنع شوربة سمك على الأصول ، خلاص. أبوك يفهم هذه الأشياء . كان يقول لى من الليلة السابقة . خواجة ثيو، غداً سنأكل شوربة السمك» .

«أبى»، قالت ميلو :

«تعرف من هذه ؟»

«طبعا أعرفها . بنت إسماعيل مرسى» .

«بنت بنت إسماعيل مرسى يا أبى» ؛ كان صوت ميلو خفيضا .

«عارف ، عارف» ، أجاب العجوز بنفاد صبر :

«كنتما دائما صديقتين – بالرغم من أنها تزوجت وأنت لم تفعلى» ، التفت الى فرح :

«إبنتك ضرورى صارت مادموزيل قد الدنيا ؟»

«فرح عندها ولد يا أبى إسمه آدم، وعمره تسع سنوات» ، قالتها ميلو، ونظرت الى فرح التى أضافت :

«تقريبا . وهو رائع الجمال . كنت سأحضره معنى ؛ لكنه يمضى اليوم مع أبناء عمه. إنه حياتى كلها الآن يا طنط ميلو . لا أعرف ماذا كنت أفعل لو لم يكن معى. الحقيقة أنا لا أستطيع حتى أن أتخيل كيف يعيش بعض الناس حياتهم دون أن – طنط ميلو –» وضعت فرح يدها على فمها :

«أنا آسفة» .

«ولا يهمك يا شيرى. الكلام ده كله كان زمان» ربتت ميلو على أتينا وحكت رقبة الكلبة : «فات . كله فات . قولى لى : ما فيش حد فى حياتك دلوقتى ؟» رجل يعنى ؟»

«رجل ؟» أي رجل ؟ كان مسيو فاسيلاكس قد التفت ليشاهد ما يحدث بالتليفزيون، لكنه استدار عائدًا ونبرات صوته مِلؤها الشك :

«انت يا بنتي مش متجوزة ؟ إذا كان ميلو راحت فرحك» .

لمست فرح ذراع ميلو بلطف وقالت :

«أنا مطلقة ياعمي ، لقد تركت زوجي» .

«مطلقة ، مطلقة : هذا كل مايسمعه المرء هذه الأيام. الناس لم يعد عندها صبر . هز مسيو فاسيلاكس رأسه في أسف :

«لم يكن يحدث هذا في زماننا . كنا ننتظر. واحد ممكن يغلط التاني يصبر شوية. واحد يشد، التاني يرخي. الدنيا تمشي. خسارة الفلوس اللي صرفها أبوكي في الجهاز وفي الفرح . ده عمل لك فرح كبير، أنا فاكر . مش بنتي راحت؟ أبوك رجل يعرف الأصول. رجل بحق» .

صمت الخواجة لحظات وهو يمص أطراف شاربه ويهز رأسه في حزن، فعادت ميلو تسأل بهدوء :

«الآن يا شيري احكي لي عن هذا الرجل» .

أفاق مسيو فاسيلاكس على الكلمة :

«ابتعدي عنهم. ابتعدي عن الرجال» – أخذ يشير لفرح بحماسية :

«أولاد كلب كلهم. الواحد تلاقيه طويل وعريض وشكله وجيه، ومن جوه» . أخذ يبحث عن الكلمة .

«من جوه مسوس. زمان، زمان كان هناك رجال . الملك كان بيجي ياكل هنا. وإيدن أنتوني إيدن، كان ياكل على الترابيزة اللي هناك دي، مع الفيلد مارشال مونتجومري. أنتوني إيدن . والملك . والفيلد مارشال» . هز رأسه مرات ، ثم استدار في مقعده ليواجه التليفزيون.

«مافيش حد يا طنط ميلو . الرجال القليلون الذين كان يمكن أن أفكر فيهم متزوجون بالفعل . وخلاف ذلك جاءنى عرض واحد للزواج، وياريتك تسمعتيه وهو يتقدم» . أما كونك مطلقة فأنا على إستعداد لأن أتغاضى عن هذا فأنا فى الواقع رجل تقدمى . «أف! عموما أنا كمان فى الحقيقة مش عايزة أى حاجة ممكن تعمل مشكلة لآدم . كان فيه – أقصد كنت أفكر أنه يمكن الوصول لنوع من الترتيب» .

«ترتيب ؟»

«أعتقد أنه يسمى (زواج مصلحة) . سئمت الكلام عن العواطف . أنا أعرف انى لن أقع فى الحب مرة ثانية . وأنا حتى لا أريد . أقصد لا أريد أن أحب من جديد. لكنى بالفعل أحتاج وضعاً ما . أحتاج مكاناً أعيش فيه» .

«عم تتكلمين يا شيرى ؟ هل هذه نظرية ؟ أم أن هناك شخصاً تفكرين فيه ؟»

«أنا فى الحقيقة لم أعد أفكر . استبعدت الفكرة . ولكن – نعم ، هناك شخص ما . لكن الفكرة تبدو الآن سخيفة» .

«من هو ؟ شخص من النادى ؟ زميل دراسة قديم ؟ ما هو السخيف فى الأمر؟»

«لا فى النادى ، ولا فى الدراسة. هو أحد جيران طنط ثريا . ربما تعرفينه ؟»

حدقت ميلو فى فرح .

هل تعرفينه يا طنط ميلو ؟ مسيو فيليب؟ بنايوتى ؟ طنط ميلو ؟

«لا . لا أعرفه» .

«هم جيران طنط ثريا من زمان . هو طبعا كبير . أكبر منى بكثير ، لا أعرف كم عمره بالضبط . بس شكله ليس سيئا رغم ذلك . ومعاملته لطيفة جدا . آدم يحبه. لكن، فى الحقيقة ما جعلنى أفكر فى الأمر هو الشقة. هذه الشقق القديمة رائعة يا طنط ميلو : السقف المرتفع ، الكورنيش فى أعلى الحائط ، الممرات

الطويلة – وشقته بالأخص كلها مبطنة بورق حائط من أيام الحرب. مدهش: ما زال شكله وكأنه لصق بالأمس. وهناك أيضا الأثاث القديم الذى كان لأمه عندما كانت عروسا منذ آلاف السنين! تخيلى! لكنى أعلم أنه من الخطأ التفكير بهذه الطريقة . وعلى أى حال هناك نوع من الخيال فى الفكرة كلها . كيف لم تقابليه أبدا يا طنط ميلو ؟» .

«قابلته . فى المناسبات – كالأفراح وما إلى ذلك»

«إنه يعيش بمفرده مع نينا ، والدته . عنده أخوات تزوجن ورحلن إلى اليونان . أبوه توفى من زمان ، وفضى البيت على مسيو فيليب ونينا ، ووجود آدم يعيد إليه الحياة. طنط ثريا تقول إنه يقوم بنفس العمل منذ تخرجه ، بعض أعمال المحاسبة البسيطة. هى لا تتحدث عنه كثيرا. فقط تقول : فيليب لا يتغير. وهذا كل ما فى الأمر. أبوه كان عنده محل بقالة كبير، لكنه لم يخلفه فى عمله وباع المحل بعد أن مات مسيو ينى» .

«ينى بنايوتى البقال العجوز؟» استدار مسيو فاسيلاكس نصف استدارة :

كان رجلا طيبا ايضا . الله يرحمه . كان مثل أبيك لم نره كثيرا هنا. لكن ميلو كانت تشترى منه كل مانحتاجه من البقالة . كان عنده محل فى بين السورين. كل أسبوع كانت تذهب إلى هناك وتعود بالحاجة فى عربة حنطور . كان يعطيها خصماً طيباً . للزبائن القدامى. جريج برضه مع بعض . بناته تزوجوا ورجعوا اليونان . وكان عنده ابن . يقولون إنه ولد جميل. ودخل الجامعة لكننا لا نعرف عنه شيئا» .

«لم تعجبك الفتة يا ست فرح؟» نظر عم صيام بأسى إلى كمية الأكل التى تركتها فرح فى الطبق .

«كانت هايلة يا عم صيام. لكن كثيرة جداً . أنا أكلت اللحم كله» .

«لن ينفع هذا يا ست فرح ، لن ينفع».

«وأكلت أيضا كل الخضراوات» – ابتسمت فرح للسفرجي العجوز وهو يرفع أطباق الأكل.

نظرت ميلو الى فرح وقالت :

«تقولين إنك فكرت فى الزواج من هذا الرجل.. هل فاتحك هو.. فى شئ؟»

«أنا لن أتزوجه يا طنط ميلو.. إننى فقط، يعنى، أقلب الأمور» .

«لكن هل كلمك هو ؟ «اعتدلت أتينا محاولة النزول من على حجر سيدتها، لكن ميلو أمسكت بعنق الكلبة فى حزم»

«لأطبعا ، لم يكلمنى » .

«إذن ؟»

«لكنه سيتكلم إذا أردته أنا أن يتكلم.»

«لكنه مسيحى أرثوذكسى» .

«يمكنه أن يعتنق الإسلام .»

«هكذا ببساطة ؟ كيف تعرفين ؟ كيف تعرفين كل هذا ؟

طنط ميلو ! المرأة تعرف هذه الأشياء. هناك شيء فى عينيه عندما ينظر الى . عندما نلتقى على درج السلم، أو يعود الى منزله فيجدنى أتحدث مع نينا ، ينظر الى وكأن شيئا مبهرا قد حدث. أنا لم أتكلم مع طنط ثريا فى هذا . لكن نادية خالتى الصغرى، لاحظت ، وقالت إنها تعتقد أن مسيو فيليب يكن لى مشاعر حنان».

«نادية ؟ أليست هى الطفلة المفضلة عند أبيك ؟» استعاد مسيو فاسيلاكس نشاطه فجأة .

«كان يأتى بها إلى هنا. كان يجلسها الى المائدة ، ويدعها تطلب كل ما تريد . هيه.. دنيا . آخر العنقود سكر معقود كما يقولون. وكيف لى أن أعرف ؟ لم يكن عندى غير ميلو.. مد يداً مرتعشة إلى كأسه :

«ميلو . كانت كل شيء عندي. كانت دنياي .»

ظلت ميلو ممسكة برقبة أثينا .

«أخبريني» قالت :

«أخبريني إذا كنت تعتقدين أن هناك رجلاً يكن لك شعورا معينا – لكن لا يفعل شيئا– لا يقدم – وأردت أن تشجعيه قليلاً – فقمت بمبادرة : خطوت خطوة لا تخطأ، خطوة لا يمكن لأحد أن يتظاهر بعدم فهمها – وهو ، هو تجاهلها ، تجاهلك . بماذا تشعرين ساعتها ؟»

أجابت فرح بثقة .

«هذا لا يمكن أن يحدث» .

«ولكن – إذا حدث – حدث بالفعل ؟»

«لا يمكن . ولكن إذا افترضنا أنه حدث – أعتقد أنني لن أهتم بهذا الرجل بعد ذلك . لكنه تعبير لطيف – ألا ترين ذلك يا طنط ميلو ؟»

«ماذا ؟ ما هو اللطيف يا شيرى ؟»

«يكن لك مشاعر الحنان .»

«آه» قالت ميلو .

«الحنان .. نعم .. بالطبع ...»

أواخر الربيع ، والبحر يرقد فى هدوء. بدأت الأشجار فى حدائق الشلالات تعتم وتسكن إلى المساء، أما العمارات العريقة، فأحجارها القديمة الصفراء تضىء ضياً خافتاً تحت أشعة الشمس الغاربة. بين عمارتين، يقوم شارع ضيق، تحفه الأشجار ، وعلى حائط إحدى العمارتين ، لوحة إعلانات كبيرة ، تحمل رسماً غير متقن لسرير ضخم، عليه مرتبة عارية، وعلى المرتبة، ترقد امرأة فى وضع إغراء تقليدى ، ترقد على بطنها، وساقاها مرفوعتان، والقدمان مشبوكتان عند الكاحل تتكىء المرأة على مرفقيها، وتبتسم لسماعة التليفون السوداء التى تمسكها بيدها. يتدلى من السماعة سلك لا يتصل بشىء. يدها الأخرى تعبث بخصلة من شعرها الأصفر. ترتدى ثوباً مقلماً أزرق فى أبيض مفتوح الصدر، وحذاء مفتوحا بكعب عال، تربطه اشرطة رفيعة ، وفوق رأسها، كتبت عبارة بالانجليزية تقول : «أنا دائماً أفضل دنلوب» .

وفى الطريق بجانب بركة مياه ضحلة، وقف صبى ضئيل الجسم يحملق فى الصورة. أسمر البشرة ، يرتدى بنطلون بيجامة أخضر باهت، وتيشيرت من النايلون البنى، وفى قدميه صندل بلاستيك، يحدق فى هذه الرؤية الجميلة الشقراء بفم نصف مفتوح وابتسامة مبهورة ، حتى أنه لا يسمع نفير السيارة، ويضطر التاكسى أن ينحرف بشدة ليتفاداه أثناء دخول الشارع ، فيطرطشه بالوحل، ويطل السائق برأسه من النافذة .

«إصح يا حمار يا ابن الكلب . مش سامع الكلاكس ؟»

يدير الولد رأسه عن اللوحة ويتبع التاكسى ببصره ، ثم يبدأ فى السير. يسير قاطعا الطريق المشجر الضيق، وعندما يصل إلى الشارع الرئيسى، يستدير جهة اليمين، ويمضى غربا مبتعدا عن المنطقة الراقية من الاسكندرية تجاه منطقة الميناء حيث تحتشد المنازل العشوائية وتتكاتف وتتلاصق، وحيث تعبق الشوارع برائحة السمك والتراب.

في مطبخ فسيح، يغمره النور، ويلمع بالنظافة، تقف امرأة بدينة، ترتدى جلبابا بلديا مشجرا. تقف بجانب الحوض تجفف أدوات المائدة الفضية. تضع كل سكينة، وكل شوكة، وملعقة، بحرص، في درج، مفتوح، مبطن بالجوخ الأخضر، ومقسم إلى خانات. عندما تنتهي، تغلق الدرج ، وتنشر منشفة الصحون لتجف، ثم تتجه إلى باب المطبخ، وتأخذ الثوب الأسود الطويل الفضفاض المعلق وراءه ، تدخل فيه رأسها وذراعيها، ثم تنزله على الجلباب المشجر . تفرد طرحتها السوداء، وتلفها حول رأسها . ثم تنحني لتلتقط الشيشب من تحت الثلاجة ، تحمله تحت ابطها ، وتسير حافية ، على قدميها الغليظتين الى الطرقة . تدلف الى حجرة جلوس ، ظليلة ، أنيقة، ذات أبواب عالية، تؤدى الى شرفة منسقة، تطل على البحر . تثرت - على البساط الأبيض - عرائس، ولعب ، زاهية الألوان، وفي كرسي فوتي أخضر، جلست سيدة شابة ، ترضع طفلها الصغير .

«عايزاش حاجة تانية يا ست نادية ؟»

ترفع السيدة وجهها المبتسم :

«خلصتي يا أم يسرى ؟»

«أيوة يا ست نادية» .

«طيب شكراً ، مافيش حاجة تانية، حتجيبى بدنجان أبيض معاكى بكره؟»

«إن شاء الله» .

تخفض السيدة بصرها الى رضيعها ثم ترفعه وتسأل :

«ضهرك عامل إيه النهارده ؟»

«الحمد لله ، أحسن بس برضه كل شويتين كده أحس بنغز»

«خليكى على العلاج . إوعى تهملى فيه .»

تومىء أم يسرى موافقة :

«عارفة يا ست نادية».

«طب مع السلامة بقى علشان تلحقى».

«خليتك بعافية».

فى منتصف الطرقة تسمع أم يسرى النداء فتهرول عائدة

«نعم ؟ نعم يا ست نادية ؟».

«يقول إبنك لقى شغل والا لسه ؟».

تلوح بيدها الطليقة يائسة.

«يسرى ؟ أبداً ».

ثم تضم يديها على بطنها وتشرع فى شكواها المفضلة :

«ده أنا غلبت يا ست نادية ، غلبت . وديته عند كهربائى قعد تلات أيام وروحوه ، قالوا مايلزمناش، ونفس الشىء فى ورشة الميكانيكا ، مخه مش فى الشغل ، تقولى لا مؤاخذة غبى - بس فى المدرسة كان ماشى كويس» .

«إنت كان حقك تسيبيه فى المدرسة. مش كان زمانه بيتعلم ؟».

«حيتعلم إيه بس ياست نادية ؟ يتعلم يبقى أفندى ؟ ما تاخذينيش الأفندية الأيام دى مش لاقيه تاكل - أنا عايزاه يتعلم صنعة» .

«هو عنده كام سنة ؟».

«أربعتاشر سنة، عقبال ماتشوفى ابنك» .

«ياه ده أنا كنت فاكراه أصغر من كده. بس هو شكله ولد لطيف، وعاقل».

«كتر خيرك يا ست نادية، ده من كرمك، والنبى حكالى: قال لى يامه دخلتنى وقعدتنى وأكلتنى» .

«إسمعي يا أم يسرى: مسيو منير، الكوافير بتاعي، بيدور على صبي يشتغل في الصالون، حيبتدى بتنضيف المحل والحاجات دى، بس لو قعد أهو حيتعلم. البقشيش كويس، وأنت عارفة الكوافيرات بتكسب دهب. إيه رأيك».

«ومالة ؟ ماانا جربته في شغل الرجالة ما نفعش، يمكن ينفع كوافير».

« خلاص اتفقنا. هاتيه معاكى بكرة وأناخاخده يقابل مسيو منير ».

«ربنا يخليك ولادك ياست نادية. حنودى جمايلك فين».

«أم يسري ماتخليهوش يلبس بنطلون بيجامة. هو ماعندوش حاجة تانية ؟»

«أبدا وغلاوتك ياست نادية أنت عارفة الحال: أخوه الكبير سارقنا كده عمال علي بطال. واد شبيح لا مؤاخذة مجرم.»

«طيب طيب، هاتيه بس معاكي وأنا حاتصرف».

أغلقت أم يسرى الباب خلفها بهدوء، وهبطت السلالم في تمهل. خرجت من المبنى، واتجهت الى اليمين، ثم انحرفت يميناً مرة أخرى، إلى الطريق الضيق ذى الأشجار ولم تلحظ سيدة الدنلوب تبتسم فوقها. بل سارت سيرها المتثاقل غرباً تجاه الميناء.

في صباح يوم دافيء، من أيام الصيف الأولى، يقف الفتى خارج أبواب صالون رومانس ذي الزجاج الفوميه. يرتدي جينز أزرق، وتيشيرت قطني أزرق فاتح، وحذاء تريننر أبيض، ينشر بشاكير كبيرة ناعمة بنفسجية، أرجوانية الحواف: يضعها بحرص على الفواطة، يفرد أطرافها مزيلا أي كسرة أو تجعيدة، يتطلع إلى الشمس المشرقة: ستجف البشاكير سريعا، يفتح الباب ويخطو عائدا إلى الداخل.

يقع الصالون في مدخل شارع صغير مسدود في نهايته، في وسط الإسكندرية. ويستطيع الواقف في مواجهة الصالون – إذا اشرأب قليلا – أن يرى

البحر، فى نهاية الشارع ورشة للسيارات ، تقف حولها عربات عديدة، مكشوفة الغطاء، ينكب عليها رجال وصبيان فى ملابس العمل المشحمة. يضم الشارع كذلك جمعية تعاونية، ومقهى يخدم كلا من الصالون والورشة . ولابد أن الصبى لاحظ كل ذلك عندما حضر إلى الصالون لأول مرة، ولكنه اليوم لا يرى شيئا من هذا، فهو مشغول تماما بعمله فى صالون رومانس .

فى الداخل، يقف قليلا حتى يعتاد الضوء الخافت، ثم يواصل طريقه خلال جلبة الأصوات وصليل الأدوات، حول موائد التسريح البيضاء المقوسة، إلى نهاية الدكان. يدفع حبات الخرز الفضية والذهبية المعلقة كستارة، وفى الأوفيس يلتقط الصينية النحاسية من مكانها فى الركن، ويعود إلى الصالون. يطوف جنبات المكان فى هدوء، يجمع فناجين القهوة، وأكواب الشاى الفارغة. وفى الشارع، ينقلها إلى صينية مستهلكة من الصفيح، يتركها بالخارج ليرفعها صبى المقهى، ويعيد الكرة بعد قليل، تمتلىء المنافض الكريستال بأعقاب السجائر الصغيرة المذهبة التى تحمل آثار أحمر الشفاه، وللمرة المائة يتعجب لقدرة الخالق : فحتى أعقاب سجائرهن جميلة، رقيقة، تبعث شعورا بحنان من نوع ما .

يجول مسيو منير بناظريه وهو يتجه إلى مكتبه الصغير مع زبونة على أهبة الخروج. كان يوما طيبا مليئا بالعمل. ولكن كل الأيام كذلك فى صالون رومانس .. كان على صواب عندما أنفق بسخاء على الديكور، فهذا ما تريده السيدات، والسيدات زبائنه، ومصدر نعمته، وهو يعمل على إرضائهن وتنفيذ طلباتهن مهما كانت. وأهم ما تطلبه السيدات، وتتوق إليه نفوسهن، هو التغيير. فترة راحة قصيرة فى عالم مختلف، ومثير، وغامض .. ومسيو منير خير من يفهمهن، تساءلت زوجته :

«مظلة من الحرير البنفسجى معلقة من السقف ؟ ليه ؟ »

فقاطعها مزمجرا :

«خيطيها وبس، لا أطلب منك أن تفهمى».

وتساءل أصدقاؤه :

«مائدتان للتسريح تكونان حرف S في منتصف أرضية الصالون ؟ لم ؟ وما عيب الطاولات القديمة المتراصة جنبا إلى جنب على امتداد الحائط ؟ ».

فقال :

«هذا شيء مختلف، وأكثر» بحث عن تعبير مناسب : « أكثر خصوصية » .

الفوتيهات، تحت مجففات الشعر، مكسوة بالقطيفة الأرجوانية، والأرضية سيراميك إيطالى ذهبى وبنفسجى، والمرايا تعطى لونا ورديا خفيفا، والضوء، الضوء مهم جدا، فزجاج الواجهة الداكن السميك يحجب أشعة الشمس، ويحافظ على خصوصية الصالون. الأضواء المركزة تسلط على مناطق العمل الرئيسية، تاركة ظلالا كثيرة فى جنبات المكان، ظلالا تسكنها السيدات، يمارسن فيها الهمس، أو الضحك، أو الاسترخاء والاستغراق فى أحلام اليقظة. وقد أثمر كل ذلك، فانظر إلى الصالون الآن: المقاعد الأربعة أمام التسريحات مشغولة جميعها، وكذلك اثنتان من مجففات الشعر. مدام نادية عند حوض غسيل الشعر الآن، بينما تجلس مدام عائشة ومدموزيل ميمى - وهما فى الاسكندرية لقضاء إجازة الصيف - تجلسان مع مدام انجيل فى انتظار دورهن. والعاملون كلهم مشغولون، وسيحتاج قريبا لتعيين عاملة مانيكير ثانية. الصبى الجديد كذلك يبلى بلاء حسنا، وقد اسدت اليه مدام نادية معروفا بإحضاره، فالولد وسيم وهادىء . هادىء أكثر من اللازم؟ فليكن. السيدات يعجبن به، وهو ذكى ويعمل بجد : المنافض، والفناجين، والأكواب، ومسح المرايا . وكنس الشعر، ومناولة الأدوات وربما يخرج عن صمته وهدوئه عندما يعتاد على الجو، فمازال ينظر حوله بانبهار.. هاهو يرفع فنجان مدموازيل ميمى فتصيح به «لأ ، لأ. سيبه يا يسرى . مدام انجيل حتقرأ لى الفنجان ، موش كده يامدام أنجيل ؟» .

رفعت مدام أنجيل حاجبيها الرفيعين :

«انا موش قلت لك يا شيرى إنى أفضل الكوتشينة ؟»

«لكنك وعدت يامدام أنجيل : آخر مرة لما كنت عندنا وعدت أن»

«كنت مستعدة وقتها أقرأ بختك فى الورق، وأنت التى غمزتينى وهمست فى أذنى بلاش أمام ماما؟ كانت حتعمل لك إيه ماما يعنى ؟»

«من فضلك يا مدام أنجيل.. عشان خاطرى.. اقرأى الفنجان» .

نظرت مدام أنجيل الى عائشة وتنهدت ، ثم حولت نظرها إلى الفنجان الخزف الصغير ومدت يدها اليه التقطته ادارته فى يدها . قلبته .

فتح يسرى باب الصالون، ووضع صينية أخرى على الرصيف بالخارج . حواف الفناجين مصبوغة بألوان مختلفة من أحمر الشفاه: وردى وأحمر وبرتقالى – عاد الى الداخل . التقط الفرشاة والمجرفة من الاوفيس، وذهب الى موائد التسريح ليجمع شعر الزبائن المتناثر هنا وهناك . أهلّة سوداء لامعة حيث قصت مدموازيل بوليت شعرها كما تفعل كل شهر ، وخصلات كستنائية طويلة تحت كرسى مدام نادية ، التى قررت أخيرا أن تغير تسريحتها تماما وتقص شعرها ألاجرسون، وهى الآن تستمتع بتدليك منعش لفروة الرأس؛ جثا ليكنس الشعر فرآها تمد قدما حافية وهى تغمغم :

«هذا أمتع جزء فى العملية كلها» .

ابتسم بيير مصفف الشعر الواقف خلفها .

«مرسى مدام ». وشدد من ضغط اطراف اصابعه على فروة رأسها المبتلة . قال فى صوت خفيض واثق :

«تدليك بسيط يفيد دائما فى تنشيط الدورة الدموية» .

لم تجب نادية لكنها ابتسمت ناصبة رأسها وهى تراقبه مثبتة عينيها فى

المرآة. والآن تحيط كفاه برأسها ، أطراف أصابع ثمانية خلف الأذنين وإبهاماه على قمة الرأس. يضغط بقوة، ويدلك بتؤدة في حركة دائرية . تغمض عينيها ببطء فينقل أصابعه الى ظهر العنق .

ما أجملها ! منذ اسابيع قليلة كان يسرى يعتقد أنها أجمل نساء العالم ، ولكن عالمه اليوم ملىء بالجميلات من أمثال ست نادية - لأ مدام نادية ، وكلهن مختلفات: فيهن المشوقة ذات السيقان الطويلة، وفيهن النحيفة ، وكذلك الممتلئة مستديرة الأعطاف. أما بشراتهن فهذه بيضاء في لون الحليب وأخرى في لون التوفى الذى احضرته أمه مرة من حفل عيد ميلاد فى البيت الكبير. منهن من شعرها طويل، وأخرى شعرها قصير، وكم تختلف تصفيفات الشعر وألوانه المتنوعة. حتى أظافر أقدامهن زاهية ملونة! لم ير فى حياته أظافر قدم مطلية من قبل - رأى بالطبع أقدام نساء كثيرة، ولكنها كانت مختلفة، تبدو قدم ست نادية - لأ: مدام نادية - رقيقة وهى ممددة على السياج أسفل التسريحة.. ناعمة ومطلية الأظافر باللون الأحمر، لو أنه مد يده فقط - صاحت سيدة وهى تجاهد لتخرج من تحت مجفف الشعر:

«مسيو منير.. مسيو منير.. هو مافيش فراخ فى الجمعية الأسبوع ده؟ انت نسيت انى طلبت منك تشترى لى ثلاثة أزواج؟»

تصنعت مدام عائشة التذمر وهى تقول:

«خلاص مسيو منير مش مهتم بنا، طلبت منه أكثر من مرة أن يوصى الميكانيكى فى أول الشارع على سيارتى، ولم يفعل شيئا.

وصاح مسيو منير:

«ولكنى فعلت يامدام عائشة: كلمته، ويقول يمكنك إحضار سيارتك فى أى وقت وهو ورجاله فى خدمتك، وفى خدمة كل زبائننا. تحبى احجز لك ميعاد فى الأسبوع القادم»؟

هتفت ميمي:

«أما فكرة. الواحدة تصلح السيارة وتصلح شكلها»

«الظاهر ان زبائنه حيزيدوا كتير».

«لازم تطلب عمولة يامسيو منير».

يأخذ يسرى كناسة الشعر خلف ستارة الخرز. يرفع غطاء الوعاء الرمادى الكبير، ويلقى فيه الشعر بطيئا. خصلات متربة مسكينة، رائعة الجمال أثناء تقلبها بين أصابع مسيو منير والأسطوات الآخرين، مذهلة حين تخطو صاحبتها من باب المحل إلى الشارع، تنثر رأسها فى خيلاء، وكئيبة حزينة عندما تصل، فى النهاية، إلى السلة. أعاد الغطاء، وخرج ليجمع الفوط المبتلة من حول الأحواض.

مرت أسابيع وهو يرقب السيدات، يجلسن فى المقاعد الجلدية الناعمة، يلقين برءوسهن على مسند الرأس المنحدر إلى الحوض، ويرسلن شعورهن تنساب فى الأحواض البنفسجية. الأذرع المزينة بالأساور والساعات الذهبية تتدلى إلى جانبهن.. مستسلمة وراقب أيضا العمال يتخذون موقفهم من الأحواض متأهبين، يمسكون الرأس بعناية فائقة، لايشوبها قلق أو اضطراب: رءوس ثمينة وهشة، ولكنها مألوفة لأيديهم الخبيرة : يدعكون، ويغسلون، ويشدون، ويمشطون، ورءوس السيدات ملقاة إلى الخلف، لامعة الشفاه، مغمضة العيون.. وسمع منهن من تشكو من الماء:

«آه آه.. سخن قوى! برده شوية»! أو.

«إيه التلج ده! يا أخى خلى فى قلبك رحمة!» وأحيانا ممسكات بالفوط البنفسجية حول الرقبة بأنامل زاهية الأظافر:

«يوه.. المية نزلت فى ضهرى.. خد بالك» ودائما يرد العامل بصوت هادىء مؤدب: «حاضر يافندم».

اجتازت مدام جابى عتبة الباب:

«إيه ده كله؟ إيه ده كله؟ ربنا يزيد ويبارك. كل الكراسى مشغولة؟ عظيم، ستضطر لفتح قهوة على الرصيف بالخارج تنتظر عليها الزبائن يامسيو منير، أم يشتت ذلك انتباه جيراننا الميكانيكية؟ هيه.. يسرى. خد علق الجاكيت. خلى بالك: من العليقة مش من الياقة، والا عندك شماعة كويسة تعلقها عليها؟ أحسن خدها الأوفيس. لأ، لأ استنى. الله أعلم انتو مخزنين ايه هناك، خليها هنا قدامى أحسن. هاتها: سأضعها هنا على ظهر كرسى مسيو منير، عظيم. اجرى بقى هات لى كوب ماء مغلى من المقهى. كوب ماء مغلى بس. خلى بالك، ماتخليهمش يحطوا فيه أى شىء. معى أكياس الشاى هنا. اجرى بسرعة. ياللا، اما الولد عمال يحلو يوم بعد يوم. انت بتكوى له شعره يامسيو منير؟

«أبدا والله يامدام جابى: هو شعره كده طبيعى. يغسله بس بشامبو الصالون، ويحط البلسم وينشف يطلع كده».

«وسماره حلو، وعينيه تجنن. الواد حيتحسد. لازم نلبسه سلسلة، سلسلة ذهب كده فى رقبته، ونحط له فيها حجاب».

علقت عائشة :

«ماتيجى نلبسه حلق يامدام جابى؟ الرجال بالخارج الآن يلبسون الحلقان – ليس فى الأذنين: فى أذن واحدة فقط».

«يابنتى دول اللامؤاخذة زى مانت عارفة – لايمكن رجل حقيقى يلبس جلق أبدا».

«والله بيلبسوا. دى موضة. وعلى أى حال طيب ما القراصنة كانوا بيلبسوا حلقان».

«ومن قال إن القراصنة كانوا رجالا؟ دول كانوا يقضون الشهور بدون نساء».

«غضب عنهم، وشوفى بقى لما كانوا بيلاقوا ستات كانوا بيعملوا إيه».

«أيوه – بس حياتهم كانت معظمها رجال فى رجال».

«وسمك وجمبرى».

ضج صالون رومانس بالضحك، وعادت مدام جابى تسأل:

«رأيك إيه يامسيو منير؟ مش لازم يسرى يلبس حاجة ذهب؟»

ابتسم مسيو منير وهو يرد:

«بس مش حلق. فكرة السلسلة الذهب فكرة حلوة. وأهى على أى حال طريقة جيدة ليدخر نقوده.. استثمار».

«يستطيع ادخار البقشيش».

«ضرورى، ما هو بيعطى أجرته كلها لأمه».

«خلاص. نبتدى الاكتتاب. نحط حصالة على الكيس يامسيو منير، وكل زبونة تحط له فيها البقشيش، ولما يتجمع المبلغ نشترى له سلسلة ذهبية بدلاية، سيحسده كل صبى فى الشارع».

وفى أكتوبر، نزل المطر، يجمع يسرى المناشف من على الفواطة، ازداد طولا، ويرتدى اليوم الجينز الأبيض الضيق، وقميصا كحليا. القميص أزراره الثلاثة الأولى مفتوحة، وتبرق على صدر يسرى سلسلة ذهبية، بدلاية عليها طابع برج الحوت، إنه الآن أسرع وأقل ترددا فى حركته، تتوقف سيارة ميمى الفيات الخضراء أمام الرصيف، فيتقدم، مبتسما ليفتح لها الباب ويساعدها على النزول.

تعلق قائلة، وهى ترقب يسرى، يحمل عددا من الفوط المطوية بعناية إلى داخل الأوفيس:

«تلميذك تعلم بسرعة يامسيو منير».

«ولد كويس صحيح، بيقفل المحل لوحده دلوقتى، والصبح بيجى أول واحد، ولد نبيه. وبقاله مدة دلوقتى بيتمرن على الغسيل - بيتمرن فى زمايله يعنى».

«ما أنت لازم حتخليه يغسل للزبائن؟»

«ضرورى. لما زبونة تجيب معاها بنتها والا حاجة، او يجيلنا زبون طيارى».

«اشمعنى يعنى يامسيو منير؟».

«معقول حنجرب فى واحدة من الستات؟»

«ليه لأ؟ أنا مستعدة، وإذا ماعجبنيش، أطلب غيره».

وقف يسرى بجانب الحوض ممسكا بالبشكير، لقد أتى دوره وسيفعلها: سيلمس واحدة منهن. مدموازيل ميمى ذات الشعر البنى الفاتح، والأرداف العريضة والكاحل الرشيق، راقبها وهى تستقر فى الكرسى، ثم انحنى ولف البشكير حول كتفيها فى عناية. رفعت هى يديها مبتسمة، ودست البشكير داخل ياقة قميصها التركواز، رفع شعرها الطويل بكلتا يديه، وأراحت هى رأسها على حافة الحوض، وأغمضت عينيها، ثبت قدميه، مباعدا بينهما، واستدار إلى الدش، اختبر المياه على يده، معدلا حرارتها، حتى جرت دافئة دفئا لطيفا، ثم تركها تنساب لفترة حتى تأكد من ثبات الحرارة، ثم بدأ يبلل شعر ميمى، أمسك بالدش فوق رأسها، مطوقا، برقة، جبينها بيده، حتى لاتنساب المياه على وجهها، بعد فترة، نقل الدش إلى مؤخرة رأسها، باعد ما بين خصلات شعرها المبتل، زخ بالدش بلطف تحت الخصلات، وهزه هزات خفيفة حتى تأكد من تخلل المياه الشعر كله، أعاد الدش إلى الحوض، وصب قدرا من الشامبو البارد فى يده. انتظر قليلا حتى تنتقل حرارة جسده إلى

السائل، ثم دعكه بين يديه برفق، ومرره على الشعر. بدأ فى الغسيل: دلك فروة الرأس، ورفع خصلات الشعر، ودلكها بحرص، ثم تركها، التقط الدش، وشطف الشعر، ثم عاد إلى الشامبو مرة أخرى، وفى هذه المرة، استثار الشامبو فى الشعر، حتى كون رغوة وفيرة، فصارت أصابعه تدخل وتخرج فى الشعر الزلق بسهولة، دلك مقدمة الرأس، وظهره ، وكذلك الجانبان، ثم الظهر مرة أخرى، رأى أصابعه تظهر من بين رغاوى الشامبو التى تكسو الشعر، وتتجه نحو أذنى مدموزيل ميمى. وجد اصبعاه الوسطيان فتحتى أذنيها، فتحسسا طريقهما عبرهما بفضول ورقة. وجد نفسه يضغط بجسده على ظهر الحوض، البشرة خلف أذنيها ملساء متناهية النعومة، تكاد لاتصدق أن فيها حماية كافية لهذه العظام الهشة الملموسة، ضغط، فانزلقت أصابعه إلى ذلك الأخدود الصغير وراء شحمتى الأذن الدقيقتين، انحنى اليها وقال:

«أسيب الشامبوه على الشعر شوية»؟

همست ميمى دون أن تفتح عينيها:

«أيوه».

لملم الشعر، وجمعه على قمة الرأس، فى رغوة واحد كبيرة، ووببطء وحنان، جفف جبهتها، وخديها، بنتفة من القطن الأبيض، ثم اتجه إلى الأوفيس.

اتكأ على الحائط ودس يديه فى جيبى الجينز الأبيض، لم يعرف مثل هذا الشعور من قبل، وكأن الدماء قد صعدت إلى رأسه، فتركت ساقيه واهنتين، وغيمت على عقله، كيف سيواصل يومه؟ هل يلحظ الجميع ما جرى له ؟ جرى له شىء رائع، أكثر روعة من أى شىء حلم به أو سمع او قرأ عنه فى حياته، ولكن عليه العودة.. يجب أن يعود اليها، فهى بانتظاره . اعتدل، وسحب يديه من جيبه، وخرج إلى الصالون، واتخذ موقفه خلف الحوض.

فيما بعد، وهى تمسك بالبشكير البنفسجى حول رقبتها، خاطبت ميمى صورة مسيو منير فى المرآة:

«الولد كوافير بالفطرة، فعلا حاسس بالشعر».

ابتسم مسيو منير وهو يلف الشعر المبتل على الرولو الوردى الكبير:

«الحمد لله، قلبه فى المهنة».

نادت عاملة المانيكير:

«يسرى.. إملا حوض البيديكير لمدام جابى».

ملأ يسرى الوعاء البلاستيك بالماء الفاتر، وأضاف قطرات من الشامبو، ونقطة من زيت الياسمين، وحمله بحرص الى الصالون، ووضعه عند قدمى مدام جابى، الجالسة تحت مجفف الشعر، خلعت حذاءها، ووضعت قدميها فى الماء، ثم رفعت المجفف عن رأسها، واستدارت إلى الشقراء، ممتلئة الجسم، التى تجلس بجوارها، باسطة يديها على ركبتيها، فى انتظار أن يجف الطلاء على أظافرها:

«بتقولي عزم عليها تروح معاه البيت»؟

فأومأت الشقراء برأسها قائلة:

«أيوة! وقال لها بصراحة إن عنده أفلام من إياها ممكن يفرجها لها».

«وبعدين»؟

«ولا حاجة، انت عارفة زيزى تبان رقيقة ومهذبة، بس مينضحكش عليها، قالت له: أروح معاك؟ هو أنا عبيطة – انا سامعة عنك، وعن مزاجك».

«لأ؟ وبعدين؟ قال إيه؟».

«ولا كلمة. لونه راح، وادور وخرج، ومارجعش المكتب من ساعتها».

«ياحرام. لأ بجد والله صعبان علية. أصل مش حاجة غريبة يعنى – فيه كتير مزاجهم كده، وبينى وبينك يعنى الحكاية».

انحنت الشقراء إلى الأمام، ووضعت إحدى يديها على ركبة صديقتها، وهي تحرص على أن تظل أصابعها مفرودة، متباعدة :

«لأ ياحبيبتي لأ، إنت مش فاهمة، قبل، أقول لك معلهش، ممكن. بس بعد لأ. بعد يبقى مجنون، سادي يعني.

غادرت المحل آخر زبونة.. راضية سعيدة بشعرها النظيف، المصفف.

غسل مسيو منير ومساعدوه، وجوههم، ومشطوا شعورهم، ثم انصرفوا في جلبة من خشخشة مفاتيح السيارات والدراجات البخارية، وبقى يسري وحيدا في صالون الرومانس، ليقوم بآخر مهام اليوم. تلفت حوله: تمتلىء المنافض الكريستال بأعقاب السجائر المصبوغة بأحمر الشفاه ، وخصلات الشعر المتربة منثورة على سيراميك الأرضية، والفوط المبتلة ملقاة بإهمال على مساند الكراسي، في حين تفيض الرولوهات الوردية حول السلال، وتنضح زجاجة الشامبو آخر قطراتها الذهبية في الحوض البنفسجي. إعادة ترتيب المحل سوف تستغرق ساعة على الأقل، شعر بنوع من الخواء الغريب: فقد اختفى الآن ذلك الإحساس الدافع الذي غمره منذ العصر، وحل محله شعور بالإرهاق وما شابه الهزيمة. انتهى المطر الخريفي، وخلف مساء عذبا مغسولا، سينظف الصالون في الصباح الباكر، ويعود الآن الى بيته مشيا على المهل. سيمشي على الكورنيش. في جيبه نقود - فالسيدات قد عدن إلى إعطائه البقشيش نقدا بعد شراء السلسلة سيتوقف في الطريق، ويأكل ساندويتشا، ويشرب كوبا من العصير، ويفكر فيما حدث له اليوم.

دار في أنحاء الصالون يطفىء الأنور، التقط المفاتيح في الظلام، وتحسس طريقه إلى الباب، وقبل أن يصل اليه انفتح الباب، كان عمود النور في الشارع هو مصدر الضوء الوحيد. وكان ضوؤه خافتا، يحجب معظمه شبح غريب يقف في فتحة الباب، لم ير يسرى منه إلا ظلا، ثم تبين فيه الأفرول والحذاء الثقيل،

والتقط أنفه رائحة الشحم والجاز، وأدرك أنه أحد عمال الورشة المجاورة، أيهم؟ هل يعرفه؟ إنه لايعرف أحدا منهم معرفة جيدة. ولماذا أتى إلى هنا؟ قال يسرى: «يلزم خدمة؟».

خطا الرجل إلى الداخل تاركا الباب يرتد وراءه، ثم استند عليه فانزلق اللسان فى القفل، لم يتكلم . شعر يسرى بثقل مفاجىء فى معدته، وبتخاذل فى ركبتيه، ابتل كفاه، وجف حلقه، ودس يديه فى جيبه، وببطء، خطا الرجل خطوة للأمام، ورفع ذراعه، أمسك بالسلسلة وارتكنت يده على صدر الصبى، وهو يتحسس السمكة الذهبية بأناة.

السخان

ساد السكون الشقة، لايقطعه سوى فحيح مستمر يطلقه السخان. هذا السخان الذى لايلبث من حين لآخر أن يزمجر مشتعلا، ثم يخبو بعد لحظات فيعود إلى فحيحه الرتيب. لم يعتد صلاح هذا الصوت بعد: فمنذ شهرين فقط لم يكن يستطيع الاستحمام إلا بإيقاد الوابور - وكان إيقاد الوابور من اختصاص فاتن.

يستيقظ من نوم القيلولة فى العصر ويطرق باب حجرة أمه، فيأتيه صوتها الخافت:

«اتفضل يابنى».

يدخل الغرفة المعتمة ليجدها جالسة فى فراشها على السرير النحاسى الكبير: رأسها معصوب بمنديل أبيض، تنسدل منه على كتفها اليمنى ضفيرة من شعر مازال على سواد لونه.

«أقعد يابنى».

على يمين السرير، وبجوار النافذة كرسيان أسيوطى، يجلس صلاح فى أحدهما.

«كيف حالك اليوم ياأمى؟».

دائما ماتتنهد قبل أن تجيب:

«الحمد لله.. حنقول إيه؟» ثم تعود تسأل:

«ازاى الحال فى الجامعة؟».

فيجيبها: «الحمد لله.. ماشى».

تمضى بعض الدقائق فى سكون ثم تنادى بصوتها الواهن:

«فاتن.. إعملى شاى لأخوكى».

تحضر فاتن الشاى فى أكواب صغيرة مذهبة الحواف، على صينية مطلية بالفضة، منقوش عليها صورة بيت الله الحرام، وتقدم لأمها ولأخيها ثم تضع الصينية على الكومودينو وتلتفت إلى صلاح قائلة:

«أسخن لك الميه؟»

يومىء برأسه، ويسمعها بعد ذلك فى إجراءات إيقاد الوابور، تملأ الصفيحة الكبيرة وتقيمها على النار. تتفقدها عدة مرات، ثم تأتيه فى النهاية، قائلة فى رقة:

«حمامك جاهز» وتولى مسرعة .

دائما ماتتحدث برقة ودائما ماتولى مسرعة.

بعد التطهر والاغتسال مما يخلفه اليوم من أتربة وعرق، ومما يتركه النوم من شوائب مستترة، يرتدى صلاح جلبابا أبيض نظيفا، وطاقية بيضاء، ويصلى صلاة المغرب. يخــرج إلى الشرفة، ويتربع على الكنبة الاستامبولى، فيقرأ القرآن، او يسبح بأســـماء الله الحسنى حتى يسمع آذان العشاء.

الآن، هو يدفع حبات المسبحة بين أصابعه، وشفتاه تتمتعان بأسماء الله فى آلية ذاهلة: «الرحمن .. الرحيم.. الملك.. القدوس. السلام.. المؤمن» .. «اختل نظامه المعتاد، فلم يشرب الشاى مع أمه – غابت عن المنزل تعزى صديقة توفى زوجها. وقد ذهب هو إلى الجنازة فى اليوم السابق، ولكن أمه لاتكتفى: فستذهب الى الليالى الثلاث، ثم إلى الخمسان، فالأربعين، فالذكرى السنوية، وبالرغم من تدهور صحتها عقب موت والده منذ شهور أربعة، فإنها مازالت توفى بواجباتها الاجتماعية – وإن كان فى ايفائها بالواجبات المتعلقة بالموت نوع من النهم. لم يشرب الشاى مع أمه – لكن نظامه المعتاد اختل فى أمر أهم: فهو لم يؤد صلاة المغرب، بل هو فى الحقيقة لم يؤد أيا من صلوات اليوم.

رفع صلاح عينيه، فمن مجلسه، وعبر باب غرفته المفتوح، مارا بالصالة

الضيقة بما تحويه من مائدة سفرة وثمانية كراسى، يستطيع أن يرى باب الحمام، فيتبين من خلال زجاج الشراعة العالية أن الحمام مملوء بالبخار، كما يتناهى إلى سمعه فحيح السخان، حول صلاح عينيه وحاول التركيز فى تسبيحاته: «يارب.. استغفرك وأتوب إليك.. يارحمن» انه يعد بين أقرانه قدوة، والشيخ حافظ، شيخ الجامع، كثيرا مايقولها، يقول إنه «قدوة يجدر أن يقتدى بها غيره من الشباب. زهرة نادرة يخشى عليها فى مثل هذا الزمن الفاسد» فلننظر اليه كيف يقضى يومه: ينهض من فراشه مع آذان الفجر ليتوضأ (وحتى وقت قريب بالماء البارد) ويصلى الفجر، ثم يجلس إلى مكتبه ليجهز لمحاضرات اليوم حتى يحين موعد صلاة الصبح، فيؤديها ويصلى ركعتين إضافيتين عليها، يختار ما سيلبسه خلال يومه: لديه ثلاثة بنطلونات رمادية، وستة قمصان بيضاء، وستة أزواج من الجوارب الرمادية، وزوج حذاء واحد من الجلد الأسود، وفى الشتاء يرتدى بلوفر رماديا مفتوح الرقبة، ولديه كذلك حلة كحلية، ورابطة عنق، أزرق فى أحمر داكن، من أجل المناسبات المهمة – كجنازة الأمس مثلا.

توقف بصره على الصوان القديم: تحتفظ فاتن بملابسه نظيفة، مكوية، مرتبة.. ولازر واحدا ناقص فيها.. وحذاؤه لامع دائما.. مع أنه لم يرها أبدا تقوم بهذا العمل، فقط كلما نظر وجد ملابسه كلها مرتبة فى الدولاب، وقد سمع أمه تقول فى أكثر من مناسبة.

«يابخت من سيتزوجها.. البنت تسوى ثقلها دهب»..

شعر بوخزة ألم فى صدره، فخفض بصره بسرعة إلى مسبحته :

«ياجبار.. يارحيم.. أحمدك على كل شىء.. أحمدك على كل شىء..»

عاد بذهنه الى تفاصيل نظام حياته اليومى.. بعد ارتداء ملابسه يخرج من غرفته ليجد افطاره جاهزا على المائدة بالصالة، يسمى ويجلس إلى الطعام:

فول مدمس بالزيت والليمون، وخبز بلدى، وعسل، ثم الشاى الثقيل، تكون فاتن قد خرجت لتلحق بأتوبيس المدرسة - باب غرفتها مفتوح - أمامها طريق طويل - بعد الأكل يغسل يديه ويتمضمض، ثم يجمع كتبه، ويذهب إلى حجرة أمه، ليجدها جالسة فى فراشها فى هدوء، عندما كان أبوه حيا، كان يتناول إفطاره معه، ثم يقبل يده، ويخرج فى طريقه إلى الجامعة، اما الآن فيذهب إلى أمه ليلقى عليها السلام.

«تركتك بخير يا أمى».

«فى أمان الله يابنى».

بحرص يهبط درجات السلم الحلزونية المتآكلة، يغض من بصره حتى لاتقع عيناه على جارة من الجارات، ثم يخرج إلى وهج الشمس، وإلى تراب الطريق يحث الخطى حتى ناصية الشارع ليقف فى انتظار الاتوبيس. يصل الاتوبيس فيهجم عليه الجمع المزدحم: كل يحاول أن يجد موطئا لقدمه على السلم الذى ينوء بثقل مايحمله من أجساد، هو شاب وقوى وغالبا ينجح فى التعلق بالاتوبيس، وقد ينفذ - أحيانا - إلى داخله.

الجو فى الداخل خانق، والحرارة لاتحتمل، قدم جارك تدهس قدمك، كوعه فى بطنك، يفاجئك شذى امرأة قريبة. بل تجد شعرها يداعب أنفك، وجسدها ملتصق بجسدك ، ساعدك يحتك فى جانب نهدها، او مؤخرتها ، تتقهقر لتندفس فى مقدمتك.. وهو يغض بصره دائما ، ويجاهد ليحتفظ بجسده محايدا قدر الإمكان، وعندما يصل إلى الجامعة يحارب حتى يصل إلى باب الأتوبيس، مختنقا بالتوتر، مرددا «أعوذ بالله.. أعوذ بالله».. لم يحدث أبدا أن تشاجر معه أحد فى الاتوبيس.. كثيرا مايرتفع صوت امرأة غاضبة وهى تصيح فى رجل يقف خلفها.

«ياخويا ما تلم نفسك وتبعد ايديك».. أو.

«اتأخر شوية لو سمحت.. احنا برضه زى اخواتك» فى حين يغمغم الرجل: «نعمل ايه بس؟ الله يلعن ابو الزحام».

ويتطلع بقية الركاب في انتظار بادرة عراك يشاركون فيه، فيبدد الملل، وينفس عن التوتر، هذه الاتوبيسات هى الجحيم بعينه، والمصائب التى تحدث فيها.. فليكن الله فى عون المرأة اذا كانت حساسة او خجولة، فستمتد اليها عشرات الأيدى، الحمد لله أن هناك اتوبيس مدرسة لفاتن، فقد منعها من ركوب الاتوبيسات العامة، وحين سألته :

«ليه؟» أجابها ببساطة:

«لأنى أعرف مايدور فيها، ولا أرضاه لأختى».

وتقبلت إجابته كما اعتادت تقبل كل مايقول وكل مايفعل - برضاء ، وبدون نقاش. تساءل بينه وبين نفسه طيب ولما تروح الجامعة؟ ساعتها لن يكون هناك اتوبيس مدرسة.

رمق صلاح الزجاج فى أعلى باب الحمام .. لايزال مضاء، والسخان مستمر الفحيح، لابد أنها تغسل شعرها الآن، ترفع ذراعيها، تترك الشعر المرغى بالصابون مكوما فوق رأسها، تضع قدمها على كرسى الحمام الخشبى، وتنحنى - لو أنه سحب كرسيا - غاض قلبه إلى قدميه.

«استغفر الله.. استغفر الله.. استغفرك واستعيذ بك.. أعوذ بالله .. عوذ بالله» تشبث بالسبحة وحاول جاهدا أن يركز فكره على أسماء الله الحسنى:

«السميع .. البصير.. الحكم .. العدل».

كان يجلس فى هذه الشرفة منذ شهرين، يجلس مثل جلسته هذه تماما، يسبح بعد صلاة المغرب، كان ذلك يوم بدأ السخان فى العمل - فقد اشتراه أبوه - رحمه الله - وتم تركيبه بعد وفاته بشهرين - انتهى هو من حمامه،

وحين دخلت فاتن تستحم، سعيدة بالجهاز الجديد، سمع أمه تناديه.. وفي غرفتها - بعد أن أغلق الباب كما طلبت - وكانت جالسة في الفراش كعادتها مؤخرا والشال الصوفى حول كتفيها - قالت له:

«كنت اليوم فى بيت خالتك».

سألها متأدبا:

«وكيف حالها؟»

«بخير والحمد لله. كلهم بخير» وتوقفت ثم أردفت.

«وكلمتنى فى موضوع».

«خير»؟

«ابن خالتك عصام - اتخرج زى مانت عارف من كلية طب الأسنان وبيفكر يفتح عيادة، وإن شاء الله ربنا يكتب له النجاح، وزى مابتقول أختى: مين يستحق يشاركه النجاح أكتر من بنت خالته فاتن؟

«فاتن»؟

«إيه رأيك»؟

أخذ بالمفاجأة.

«بس دى - دى طفلة».

«عندها ١٦ سنة وفى ثانية ثانوى. ممكن نعمل خطوبة على الساكت، بدون أى مساس بالمرحوم، وعلى ما هى تنتهى من المدرسة السنة الجاية يكون عصام فتح عيادته وجهز نفسه وأصبح مستعدا للزواج».

يا «أمى ده كلام مش معقول: فاتن؟.. فاتن بنت نبيهه! وشاطرة! وكان والدى دائما يقول انها لابد تدخل الجامعة. ضرورى تكمل تعليمها».

«هو ايه التعليم ده كله يابنى؟ البنت مصيرها للزواج والأطفال».

«اطلبوا العلم ولو فى الصين – وتربية الأولاد مش بسيطة – هل تحدثت معها فى هذا الموضوع؟».

«فاتن ؟ لا طبعا. أنا قلت أكلمك إنت الأول».

«طيب بلاش تكلميها – دى لسة صغيرة – خليها تفكر فى دروسها ومذاكرتها – الجواز لسه بدرى عليه».

تنهدت الأم وقالت:

«اللى تشوفه يابنى. وأهى رخرة مابتطيقهوش.. حتى وهم عيال كانوا دايما يتشاكلوا».

استعاد تلك المحادثة وهو جالس على الكنبة وفحيح السخان الجديد يملأ الشقة، كان متأكدا من أنه على صواب، فأخته صغيرة جدا على التفكير فى الزواج – بالطبع الزواج حماية للمرأة – وهى أيضا يتيمة – لكنه موجود – وفاتن فتاة طيبة ولا يمكن تقع فى الخطأ وهو موجود، موجود لرعايتها وحمايتها وتوجيهها.

عندما سمع صوت باب الحمام يفتح رفع نظره: كان الضوء خلفها، توقفت لحظة فى فتحة الباب يحوطها البخار المتماوج ، فكان جسدها ظلا داكنا، لايميز فيه وجها، اما ما نفذ الى صلاح فكان سهام الضوء تتخلل قيمص نومها القطنى الخفيف ، لحظة ، شعر فيها ببخار الماء الساخن ينطلق من الحمام: يلتفت حوله، يلعقه، يلذع عينية، ويلهب رأسه ، وتعالى فى الشارع صوت هرج ومرج فاستدار يستطلع الأمر ودارت فاتن حول مائدة الطعام فأتت بسرعة إلى حجرته ثم إلى الشرفة واتكأت على السور لترى مايحدث. كان أناس كثيرون يجرون عبر الشارع وهم يصيحون «حرامى! حرامى!» وأناس آخرون لم يشاركوا فى الجرى وقفوا على

أعتاب محلاتهم او على الرصيف يشاركون بالصياح. كانت بشرتها مغسولة موردة، ورائحة الصابون لاتزال عالقة بها ، وشعرها المبلل النظيف ملتصق برقبتها، تتساقط منه قطرات الماء ، فتجرى على صدرها إلى أن تتوارى فى فتحة قميص النوم ، وكانت حافية القدمين استدارت إليه تسأله:

«شفت الحرامى؟».

كانت تواجهه بعينين واسعتين صافيتين لونهما عسلى مرقط بالذهب، وفمها منفرج قليلا وهى تنتظر جوابه، وأعادت السؤال:

«شفت الحرامى؟».

أشاح بنظره بعيدا إلى الشارع :

«لا ، لم أر شيئا –» أجابها وهو ينصت إلى صوت قلبه يرتطم بجدران صدره – إلى عقله يرتطم بجدران رأسه – إلى رأسه – إلى جسده – سألته باهتمام .

«ماذا يفعلون به إذا أمسكوه ؟» فأجاب عابسا .

«يضربونه علقة محترمة ثم يأخذونه إلى القسم –»

«حرام أن يضربوه .. ألا يكفى أن يأخذوه إلى القسم ؟»

«هو حرامى ولابد أن يعاقب . هناك قوانين والناس المفروض لا تتعداها والسرقة ضد الشرع والقانون –» وسمع صوته يزداد حدة .

«طيب وافرض إنه فقير ومحتاج ؟» التف شعرها المبتل حول رقبتها ، ورأى – وهى تميل إلى الأمام – قطرات الماء تنزلق على رقبتها لتختفى فى الظلال بين نهديها . قالت :

«مفروض يعرفوا الأول ماذا سرق ، يمكن سرق أكل لأنه جائع -» ود لو يمد يده ليلتقط قطرة من الماء على طرف إصبعه ، ود أن ينحني ليلتقط قطرة على طرف لسانه . قطرة واحدة . بمنتهى الرفق . فلن يلمسها ، يريد الماء . الماء فقط . ابتلع ريقه ، وتحركت يده على سور الشرفة ، وانزاح مرفقه قليلا فلمس ذراعها وهى متكئة بجانبه ، ثم تراجع :

«لا فرق . لقد خالف القانون ولابد من عقابه .»

سكتت . فقد سمعت فى صوته نبرة السلطة ، وهو أدرى بما يقول . هو أخوها الكبير وفى السنة النهائية فى كلية الحقوق ، وفى المستقبل سوف يكون محاميا عظيما أو نائبا عاما .

هدأت الضوضاء بابتعاد المطاردة عبر الأزقة والشوارع ، واستمر وقوف الناس فى حالة من الترقب لا يريدون العودة إلى بيوتهم . تنهدت فاتن ثم انتصبت تبتعد عن سور الشرفة وهى تهمس :

«يا رب ما يمسكوهوش .» واستدارت عائدة إلى الداخل .

وقف صلاح ساهما متصلبا يتكىء على السور لفترة طويلة . حاميها حراميها : قصة قديمة قدم الدهر . فاتن . كل خصلة لامعة من شعرها المبلل .. كل سنة بارقة فى ثغرها المنفرج .

كل قطرة ماء متساقطة .. ببطء أولا .. ثم مسرعة على بشرتها الحية الموردة : كلها كلها تضىء وتومض فى مخيلته .

تململ صلاح فى جلسته المتربعة على الكنبة . فرد ساقيه ومدهما ثم ثناهما تحته . كفى وليقلع عن هذا ! وإذا لم يستطع التركيز فى حبات مسبحته ، فليصرف ذهنه إلى حياته اليومية الطبيعية ، إلى الانجازات المطلوبة منه ، إلى أيامه فى الجامعة . فهو طالب مجتهد ، تعلقت نفسه بدراسة القانون حين رأى فيه محاولة الإنسان أن يمثل نظما أخلاقية

مستمدة من إرادة الله سبحانه وتعالى ، درسه فوجده منظما ودقيقا وفيه إجابة لكل سؤال . وصل إلى السنة النهائية بكليته ، ولديه اليوم طموح أن يعين فى هيئة التدريس . اعتاد الاجتهاد وكان يقضى وقته بين قاعات المحاضرة والمكتبة . لم يجلس على الكافيتريا ولم يتسكع فى الممرات مثل باقى الطلبة . لم يتقرب يوما للفتيات ، إذا حدثته إحداهن كان يجيبها بأدب ، ولكنه لم يصادقهن ولم يعرفهن ، ولا يجد عنده الرغبة فى أن يفعل : يبدون فى نظره خاليات من النضارة ، كالقميص بعد أن يلبسه يوما كاملا فيتهدل وتظهر على ياقته والأساور آثار العرق والتراب . فتيات فى الشارع ، فى الجامعة ، فى العراء : شعرهن مشعث ، ملابسهن صارخة ، أقدامهن متربة فى صنادل مفتوحة ، أصواتهن عالية ، وسلوكهن رافع للكلفة . لم تنجح احداهن أبدا فى اغرائه بمخالفة شرع الله والتحديق فيها أو اشتهائها ، ومنذ بلوغه لم يرفع بصره فى امرأة من غير محارمه : خالاته وعماته وأمه وأخته ، أخته فاتن . كان يراها مختلفة عن كل الفتيات : وجهها برىء فى استدارته الطفولية ، صوتها حى رقيق ، تبرق بالنظافة ، تشع منها رائحة الصابون وهى تقوم بأعمال المنزل أو تجلس إلى مكتبها لأداء واجبات المدرسة . لا هزار ولا مناقشة – طاعة فقط واحترام وحب . أما هو فقد خالف أمر الله الصريح : «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم ..» ولو أن الشيخ حافظ اطلع على خبيئة نفسه وهو يؤم أصدقاءه فى صلاة الجمعة لطرده من المسجد ، ولكان له كل الحق ، ألا يحمل فى قلبه من الدناسة والفحش ما يغضب الله عليه ؟ عليه غضب الله . عليه غضب الله حتى يغير ما بنفسه .

رأى نفسه يتلكع فى الصالة حتى تمر فاتن ليحتك بها «بعفوية» ، وترددت فى ذهنه كلمات أمه :

«أنت رجلنا الآن وليس لنا غيرك .» حاميها حراميها .. تلمس أصابعه يدها وهي تتناوله كوب الشاي .. أصبح مثل ركاب الأتوبيس المتلصصين . أمه الراقدة على سريرها النحاسي الكبير بضفيرتها المحتشمة مدلاة على كتفها - كيف يفوتها ما يختلج في الحجرة ؟ ألم ترى ألسنة اللهيب تنهش رأسه ؟ وفاتن .. ألم تشعر بشيء هي الأخرى ؟ أم أنها تشعر وتخفي ؟ النساء .. النساء .. من الصعب فهمهن ، فهن ناقصات عقل ودين . هل يمكن أن يحس هو بكل هذا ، وهي لا تحس بشيء ؟ ربما تحس فاتن بمثل مشاعره ولكنها تخفي أمرها .. ولكنها تبدو بريئة .. تبدو مفتوحة وصريحة .. ووجهها .. عيناها عينا طفلة .. مشدوهة ، محبة ، مطمئنة . لا ، ليس عندها أسرار تكتمها أو أفكار تؤرقها أو مشاعر تخجل من التصريح بها - ولكن من يدري ؟ من أين له أن يجزم ؟ كيف يمكنه - في النهاية - أن يعرف ما يدور برأسها ؟ يعرفه معرفة اليقين -

ليلة أمس - عقب الجنازة - أقنعه نفر من أصدقائه المشيعين أن يخرج معهم :

«فلنخرج لنروح عن أنفسنا وننسى أمور الموت والنكد» .

قصدوا إلى وسط المدينة ، وساروا وسط الزحام ، في شارع سليمان باشا ، متأبطين أذرع بعضهم البعض ، يحدقون في السائرات . جلسوا في شباك الإكسلسيور وطلبوا الشاي وأخذوا يتحدثون بأصوات عالية .. عن الكلية ، والدراسة ، والأساتذة .. ولكن أكثر كلامهم كان عن البنات . يتحدثون عن بنات الناس ، ويعلقون على النساء المارات في الشارع : هذه رفيعة كعصا المقشة لكن أنظروا إلى عينيها تنضحان شهوة ، وتلك بشرتها بيضاء مهلبية يا قشطة ، وأخرى ردفاها كالمطاط ، أستك توماتيكي منه فيه - ووجد تفكيره رغما عنه منصرفا إلى فاتن مع كل تعليق :

يقارنها بالنسوة المارات أمامه ، مستحضرا إياها فى مخيلته بكل تفصيل .. ليست فى مثل بياض تلك المرأة - كلا فبشرتها خمرية اللون ، وعندما تسير لا تتمايل كهذه ، وعودها .. تنورتها دائما فضفاضة فلا يستطيع تخيل حركة الـ- يغلق بسرعة أبواب تفكيره وتتشبث أصابعه مرة أخرى بحبات المسبحة .

هتف مسعد ، أقل الصحاب قربا إلى نفسه :

«لنذهب عند سوسن . عندها بنت جديدة .. تفاحة .. صغيرة ومنظرها لا تبتل فى قمها فولة ، لكنها شاطرة تمام . عفريتة !» .

تمتم صلاح وهو يمسك بمسبحته «أستغفر الله العظيم» فصاح مسعد :

«قوم يا صلاح .. كف عن هذه التمتمة وقوم معانا» .

«تفكرون فى ارتكاب الفاحشة وفى معصية الله ؟» ضحك مسعد :

«تقدم يا رجل : أهى مرة ، جرب وشوف . أليس الزواج نصف الدين ؟

وكيف إذن تتزوج بدون تدريب ؟» تدخل صديق آخر :

«دعه فى حاله يا مسعد ، صلاح ليس مثلنا .. إنه من أحباب الله» .

«ماذا ؟ أليس لجسده عليه سلطان ؟ ثم إنهم يقولون إن أحباب الله هؤلاء فى حقيقتهم معلمون ، يعلموك ويعلموني ما لا يخطر على البال - »

«أنا ماشي» قالها صلاح وقام يهرول فى الطريق . لم يحدث أن تجرأ أحد يوما واقترح عليه مثل هذا . الآن يشعرون بأمره ، يشتمون ما به ، ظهرت عليه الدناسة وها هو ربه يرسل له تحذيرا ، يقول سبحانه :

«أراك يا عبدى ، وسوف يراك الآخرون» .

أسرع وأسرع في زحام الطريق والمسبحة في جيبه تجري بين أصابعه :

«– من شر الوسواس الخناس ، الذي يوسوس في صدور الناس – يارب سترك يارب – أعوذ بك – أعوذ بك من شر ما خلقت –»

وصل إلى المنزل وصعد درجات السلم ببطء خافضا بصره ، عضلات ساقيه – عضلات فخذيه تؤلمه ، ذراعاه وقفاه وأسنانه تؤلمه ، جاء نفسه صعبا مجروحا . ما الفائدة ؟ ما فائدة غض البصر وعدم التطلع إلى الجارات وأنت ترفع بصرك إلى أختك ؟ ولكنه حلال .. حلال أن ترفع بصرك إلى أختك . وحلال أن ترغب فيها ؟ أن تشتهيها ؟ أن تحاول لمسها بجسدك القذر لتلوث طهارتها ؟ وكيف لي أن أعرف أنها طاهرة ؟ بواطن الأشياء ليست كظاهرها ، فهذا وجهي لا يزال صارما نظيفا ، ونظرة عيني مستقيمة وبريئة . من يدرك ما يقبع في قلبي ؟

فكيف لي إذن أن أتأكد من أي شيء ؟

دلف في صمت إلى الشقة . كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة . الظلام يسود المكان والضوء الوحيد يأتي خافتا من المصباح السهاري بالصالة . قصد حجرته وبدأ في خلع ملابسه . لم يؤد بعد صلاة العشاء . عبر الصالة في طريقه إلى الحمام ليتوضأ . ولم يكن ، في الحقيقة ، قد فعل ما ينقض الوضوء ، لكنه شعر بوجوب التطهر بعد كلام الشباب الفاضح على المقهى . دار حول مائدة الطعام فتوقف أمام باب أخته . كان الباب مواربا فلم تعتد فاتن إغلاقه في أي وقت . لم تكن لديها أسرار . لمس الباب ، فاستجاب صامتا وانزاح مفتوحا . خطا إلى الداخل . الشيش مفتوح على مصراعيه ، ونور النيون من الشارع يضيء الحجرة .

في أقصى ركـن من الحجرة كان سريرها ، وهى نائمة عليه ، متكورة في دفء تحـت المـلاءة البيضـاء . الملاءة القطنية تخفيـها بأكملها عدا رأسـها . شعرها منثور ، وعيناها مغلقتـان . انحنى عليها .. ترى هل تستيقظ ؟ رائحة الصابون تنبعث من جسدها . سمع همس أنفاسها يتردد خفيفا على الوسادة . مد يده بحذر . تقلبت في الفراش فاستلقت على ظهرها ليواجهه الجسد ذو الوجـه النائم سـهلا متـاحـا تحت الملاءة البيضـاء . تراجع خطـوة وعينـاه مغلقتان بتضاريسها ، ثم استـذار وترك الحجـرة . جر نفسه جرا ليدور حول المائدة ويعود إلى حجرته . نسى الوضـوء ونسى الصـلاة وألقى بنفسـه على فراشه فراح في سبات منهك عميق .

استـيقظ على أذان الفجـر وقـد انتابه شـعور غـريب بأن شـيئا رهيبـا قد حـدث. راودته ذكرى شـاحبة لحلم يرفـع فيـه غطاء ويلمس نهدا . رأى فاتن تضمـه إليها تحت الملاءة القطـنية البيضـاء وتداعبه حيث يتـوق لأن يداعب ، ولكنه عندما همـس باسـمها سـخرت منـه قائلـة «اسمي سوسن . ألا تعرفني ؟»

أخذ يطمئن نفسـه ، ويؤكد لها «ليـس إلا حلمـا .. مجرد حلم» ، ثم تذكر : الصلاة . لقـد ارتمى على فـراشـه دون أن يؤدى صـلاة العشـاء . لأول مرة منـذ بلغ وحقـت عليـه الصـلاة يفـوته فـرض من فروض الله ، وهـا هـي صـلاة عشـاء الأمس قـد فاتتـه إلى الأبد . إلى الأبـد ، إلى الأبد ، فاتتـه إلى الأبد ، دفـن صـلاح وجهـه بين راحتيـه وأجـهش بالبكـاء . دنـس ، قـذر ، بليـد ، منافق :

«وصـلت إلـى الحضـيض . إلـى الحضـيض وصـلت . وليـس لى مـن منـج سواك» .

لم يعرف كيف مر به اليوم . خرج من البيت ، ومشى فى الطريق ، وحضر المحاضرات ، ولكنه كان غائب الذهن ، لا يدرك شيئا مما يدور حوله .. لم يصغ إلى الأساتذة ، ولم يكتب شيئا فى كراساته . فاتته جميع صلوات اليوم ، فما الفائدة من أدائها ؟ بل هو الكفر بعينه أن تصلى وأنت بهذا الدنس . يجب أن يجد حلا . يجب أن يجد حلا كى يستطيع الصلاة .

جلس على الكنبة وبيده المسبحة . جلس يذكر الله ، ثم انفتحت أمامه طاقة رأى فيها حقيقة واحدة : إنه وفاتن أخته وحدهما الآن بالشقة . أمه لن تعود قبل مضى ساعة أخرى . كان صوت السخان قد خمد .. لابد أن فاتن تجفف نفسها الآن . تمر بالمنشفة على أجزاء جسمها جزءا جزءا . تنثنى لتصل إلى كاحلها ، أو ترفع ساقها حتى – إذا استمر على هذا المنوال فمصيره المحقق هو الخسران .. خسران دراسته ومستقبله .. خسران الدنيا والآخرة فيكون من الخاسرين .

فتح باب الحمام فسكب ضوءا وبخارا إلى الصالة ، ثم مدت فاتن يدها وأطفأت النور ودارت حول مائدة السفرة ودخلت حجرتها . من المؤكد أنها لا ترتدى شيئا تحت قميص النوم هذا . ولماذا تخرج دائما من الحمام حافية القدمين ؟ هل هو اختبار ؟ هل يختبره ربه ؟ عادت من حجرتها بشعرها ملفوفا ببشكير وعبرت الصالة إلى حجرته :

«أنا حاعمل شاى . تحب أعمل لك معايا ؟»

«لا»

وقفت لحظة مأخوذة باقتضاب إجابته ، ثم غادرت الحجرة فى هدوء . وصل إلى سمعه صوت حركاتها فى المطبخ ، ثم رآها تعبر الصالة : فى يدها اليمنى كوب من الشاى ، وفى اليسرى ساندويتش . دخلت حجرتها دافعة الباب وراءها .

«الرحمـــن ، الرحيم ، العليم ، البصير... » لن تعود أمه قبل ساعة . ليذهب إلى المطبخ ويجهـز لنفسـه شيئا يأكله . نهض من على الكنبة فعدل من جلبابه ، ثم دفـع قدميـه فى خـفـة . سـار إلى الصـالة ومنهـا إلى المطبـخ ، ثم عـاد أدراجـه ، ولف حـول المائــده ، فـوصـل إلى باب أختـه ، ووقف ينتظر . سمع حفيف أوراق . ألا ترتدى شـيئا بالمرة تحت قميص نومها هذا ؟ دفع الباب ودخل . كانت جالسـة على مكتبها ، مولية ظهرها له ، فاستدارت . سار إليها ببـطء ، ثم وضع يـده على رقبتـها العـارية . ابتسـمت له ، وشعر بساقيه ترتعدان . نظر إلى المكتب أمامها ، فرأى عليه مجلة مصورة . الصور تحكى قصـة ما ، والشـخصيات تخرج من فمها فقـاقيع تتـزاجم فيها الحروف اللاتينيـة . فى إحـدى الصـور رجل يمسك بذراع امـرأة ، وهى تجـاهد وتشـد لتتخلص منه .

«ما هذا ؟» .

استدارت إلى المجلة :

«هذا ؟ هذا فرنسى . مدموزيل سناء بتقول إن أحسن طريقة لتعلم اللغة هى قراية المجلات والقصص . أنا خدت دى النهاردة من مكتبة الفصل» .

الفتـاة ، فى الصـورة ، تحـاول انتـزاع ذراعـها ، وقد فصل الرسـام خطوط نهديها بوضوح تام تحت البلوفر . شدد قبضته على رقبتها :

«وما رأيك فيها ؟»

«تعجبنى .. مسلية وبتخلى اللغة حية أكتر» . ضحكت متطلعه إلى وجهه وقالت «أحسن من حل تمارين القواعد المملة» .

قـــال : «إنــت مــش فـاهمـــة إن دى مـجـلات مـخـــلة بالآداب ؟ وإنـهـا بتـعـــلم الكفـــر والفســـق ؟» ثم عـــلا صـوته : «ولك عـين وتقـــولى لى إنهـا عاجباكى ؟»

يده تقبض على أعلى ذراعها فتؤلمها ، ويلمس ظاهر أصابعه جانب ثديها ، فيسرى فى يده وخز وتنميل :

«أهذا ما نرسلك إلى المدرسة لتتعلميه ؟ لتتعلمى قلة الأدب ؟ سأذهب إلى المدرسة غدا لأعرف ما تهدف إليه ست سناء هذه».

«صلاح .. أنت لم تفهم ..»

هوت الصفعة على خدها الأيمن . دار رأسها وانزلق عنه البشكير فانساب شعرها المبتل حول رقبتها .

«إخرسى . أنا الذى أقول لك متى تتكلمين . حضرتك دايرة على حل شعرك ، لا أحد يراقبك ليدرك ما وصلت إليه . كل هذا انتهى الآن . شامعة ؟ ممكن تخدعى الجميع ، إلا أنا ، إلا أنا»

تحدق فيه فاتن وعيناها متسعتان ، جافتان ، فيهزها صائحا :

«لماذا تبحلقين فى هكذا ؟ أول مرة تشوفينى ، أم لأنك عرفتى إنى شايفك كويس ؟ عاملة نفسك بريئة ومش فاهمة حاجة ، دلوقتى نشوف البراءة دى حتصيفصف على إيه -»

تنساب نقط الماء على يده من شعرها المبتل . يترك ذراعها ويحرك يده عبر نهدها إلى فتحة قميص نومها وهى جالسة فى مكانها بلا حراك . يدور المفتاح فى قفل الباب وتخطو الأم إلى الداخل متجشمة بالسواد من رأسها حتى أخمص قدميها :

«فيه إيه يا صلاح» ؟ من أول السلم تحت وأنا سامعة صوتك -»

يترك صلاح أخته ويستدير إلى والدته . يمر بيديه على عينيه :

«تعالى إلى حجرتك يا أمى -» يرتعش صوته :

«عندى ما أقوله لك -»

يتبع صلاح أمه إلى حجرتها ويغلق الباب خلفهما .

فى غرفتها تنحنى فاتن على المكتب ، فتضع وجهها على المجلة المصورة ، وتشبك ذراعيها حولها ، تحتضن جسدها المرتجف .

«تذكرين موضوع عصام الذى كلمتينى عنه ؟ هو لسة عايزها ؟»

«أيوة يا بنى بس هى -»

«فلنزوجها له» .

«بس هى - طب وتعليمها ؟ مش إنت قلت -»

«اتعلمت كفاية . زيادة عن كده مش حيفيدها حاجة . أنا ضبطتها اليوم بتقرأ مجلة مشبوهة ، وإذا راحت الجامعة حتفسد زى كل البنات هناك . أنا مش عايز أشوف أختى داهنة ضوافرها أحمر وبرتقالى ، وصوتها عالى ، وعينها فاجرة» .

«طب .. نستنى كمان سنة لما تاخد الثانوية -»

«إذا كانت مش حتروح الجامعة إيه لزوم الثانوية ؟ هى حتشتغل ؟ لا . كل ما عجلنا بالزواج كان أحسن -» وهدأ صوته وهو يكمل :

« وإذا كانت نفسها تدرس تبقى تدرس فى البيت - بعدين» .

«بس يا صلاح فاتن لسة ما فيش على بالها -»

«البنت عدت ١٦ سنة ، ودى هى السن اللى حددها القانون للزواج ، ولابد فيه أسباب قوية وراء هذا التحديد . هو ابن خالتى مش عايزها ؟»

«طبعا يتمناها» .

«إذن انتهينا ! الزواج حماية . نعجل به ، وتقدر تعيش مع خالتها لحد ما يفرش لها شقة . أنا فكرت فى الموضوع كويس ، ومتأكد إن ده الصح .»

«خلاص يا بني .. اللى تشوفه .. إحنا لنا مين غيرك ؟»

«حتكلمى خالتى بكره ؟»

«حاضر . دى حتفرح فرحة . وعصام حيطير –»

«ربنا يتمم بخير يا أمي .»

«آمين يا رب العالمين .. إن شاء الله !»

خـــرج مــن حـجــرة أمـــه ، وخطــى بثـقــة إلى الحـمـام ، حـيث أدار صنبـور الماء البارد .

المولد

(إلى نعمات)

الميـــدان المبلط العتيـــق ، والوقـــت أواخـــر مـايو ، والجو مطير . انتشت عـائشــة بالمطر المنهمر : بالقطرات الصـغيرة ، السـريعة ، المائلة ، اللاذعة ، شكشـك المطـــر بشـــرة وجـهـها ، يديها ، ساقيـها . الهـواء منعش ، والقمـر متـــوار خلف ســحب خفيفــة فــى السماء المظلمة ، وبلاط الميدان يلمع ، وعائشــة ســعيدة : رفعـت وجـهها إلى السمـاء ، وتركت شـعرها يبلله المطر . اقتــرب زوجـها ، ومرة أخــرى عــرض حـمــاية مظلته ، لكنها رفضـتـها : لم يشـأ أن يقـــوم حــاجزا بينهـا وبيــن السـماء والمطـر . واصــل زوجهـــا السـير – فـى جفاف .

كانت هـــى التى اقتــرحت أن يتركـا السيارة أســـفل التـل ، ويصـعدا إلى الحى الشـــهير عبـــر المائتى سـلمة . لم تعجبـه الفكرة . وصـفها بأنها غير عملـية ، فهــما يرتـديان مـلابس السـهرة ، وهذا يجعلهما عرضة للمضايقات ، إن لم يكن للســـرقة ، كما أن السـيارة نفسـها قــد تقتحم وتسـرق إذا تركت فى هـــذا الشـــارع المظلم ، فمــا الفـكرة ؟ توقـعت هذا الاعـتراض، وهى فى العـادة تبـتلع رغبـاتهـا وتصـمت . أمــا الليـلة ، فـقـــد خـرجت عن المألوف ، وتحايلت عليـه قائلـة بلطـف وهـــى تحـاول استـمالته :

«ســتـرى عند انتهاء حـفل العشـاء ، سنسـتمتع بهبوط كل هذه الدرجات – ووقتهـــا ، سـيكون القــمر سـاطعا » .

أذعن لرغبتها ، وأوقف السيارة .

الكـاتـدرائيـة البيضـاء يلفـهـا صـمــت عمـيــق . ابتلعـهـمـا ظلــها مـــن جـــانب ، ثم طلعـــا مـــن الجـانب الآخـر إلى ضـــوء قــمـر قــد انزاح عنـــه السـحـاب ، والدرج الحـجــرى العـــريض يتلألأ أمـامـهـما ، نزولا إلى الشـارع الضيـــق حيـــث تقــف الســيـارة ، تنتظـــر . ضـوء القـمـر ، والكـاتـدرائيـة ، والظـــلال ، والـدرج الحـجـرى . منظـــر فـــريد : وكـأنهـمـا جـــزء مـــن لقطـة مبهـرة فى فيلـم ملحـمـى .

طلعا إلى الضوء . وتسلل خلفهما ظل ضئيل لشخص ثالث ، وانسل يلحق بعائشة . وضع يدا دقيقة ، داكنة ، على ذراعها ، وهمس : «عشرة فرنكات .. بعشرة فرنكات يا سيدتى أقرأ لك طالعك» . التفتت عائشة ، والتقت عيون سوداء ، بعيون سوداء . لكن المرأة الغريبة أرخت جفنيها فى الحال . توقفت عائشة عن المشى ، فرفعت المرأة يدها عن ذراعها ، وادارت كف يدها ببطء ومدتها مفتوحة . أجابتها عائشة . مدركة وجود زوجها وحده على بعد خطوات ، منتظرا تحت مظلته : «لا ، لا .. شكرا لك » . فقالت المرأة بنبرة مختلفة ، آمرة : «أعطنى يدك اليمنى» . مدت عائشة يدها اليمنى ، وأسلمتها لليد الممدودة لها . لم تجر المرأة سبابتها على كف عائشة ، ولم تهتم برسم تفاصيله الدقيقة ، ولم تفعل ؟ إنها ، بعد اللحظة الأولى ، لم تنظر حتى إلى الكف البيضاء التى تمسك بها ، بل أبقت عينيها العميقتين مركزتين على عائشة : عائشة الجميلة المتوهجة ضيا . «أنت تحملين الظلام يا ابنتى . فى الموسم القادم ، عند البداية الجديدة .. ففى البداية نهاية أيضا .. متشابكتان . أنت أردت التواصل .. أردت الذوبان .. كان يجب أن تحذرى » انسحبت المرأة فتوارت فى الظلام ، بينما وقفت عائشة تمد يدا مفتوحة للمطر . عاد زوجها إلى جانبها ، وأخذ بذراعها ليسحبها إلى تحت مظلته ، قائلا : «تعالى . سيقتلك البرد» . وكان يمسك بيده ورقة من عشرة فرنكات لم تأخذها المرأة .

وقتها فقط - أى بعد حوالى ثلاثة أشهر - أدركت أنا كل شئ .

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

[illegible]

مـــــارس

راقبتهما. عاما وراء عام . كانا يتشاحنان ، وقبل ذلك بمرور الوقت تعلمت عائشة الحرص : تعلمت الابتعاد عن موضوعات بالذات ، تعلمت مداراة الحماس ، والتساؤل ، والانفعال ، والمعارضة ، والشجن ، والدموع ، والفرح – تعلمت مداراتي ، ليس خوفا مني ، أعتقد ، بل خوفا عليه .. خوفا عليه مني ، وأيضا رغبة في مواصلة حبه .

في أحد المطاعم تحادثا عن متصوف قديم ، وانتهى الحديث بأن صاحت في غضب يائس :

– «ولم تعتقد أنك تعرف كل حاجة ؟ أفهم أنك تؤمن بالعلم . لم لا تعترف إذن أن ما يبدو خرافة اليوم يمكن اكتشاف تفسير علمي له غدا ؟»

أجابها مبتسما :

– «لا ممكن يكون فيه تفسير علمي لـ «العين الثالثة».

– «إيش عرفك ؟ إزاي تكون متأكد إن مش حيكون ؟ في المستقبل ؟»

هز كتفيه قائلا :

– «كده» .

– «إذن أنت تعتقد أن كل ما يمكن معرفته خلاص اتعرف ، زي ما بتقول باستمرار انك عملت كل شيء ، وما فيش أي داعي إننا نعمل ، سوا ، أي حاجة . يعني انت بتقول إن مش حيكون فيه أي حاجة جديدة في الحياة . طب عايشين ليه ؟ ما نموت بقى . ما نموت وخلاص » .

نشجت بالبكاء ، وعجب الجميع من تلك الثورة التي تملكتها ، وهزتها ، وأبكتها ، في هذا المطعم الفاخر ، وحولها الأحباء . ثم ،

مـاذا يعـنى ذلك المتصـوف القـديم لهـا حتـى تبـدى كل ذلك الحمـاس فى الدفـاع عنه ؟ .

صغيرتى المسـكينة الغـالية .. لماذا أشـعر بالسـعادة إذ تشـعر هـى بكل هـذا الأسى ؟ يأسـها هذا هو ما يدفعها نحوى : ففى لحظات اليأس لا تزج بى بعيدا ، ولا تتكـرنى . ليـس ذنبى أن وجـودى يسـبب لها كل هذه التعـاسـة : تعاسة لا داعى لها .

أدركـت أنهـا تعـى وجـودى ، رغـم أنهـا وجـدت مـن الأفضل - أغلب الوقـت - أن تتظـاهر بغيـر ذلك ، لكـنى ما كنـت لأدعهـا تسـتريح : كنت أرقـد مسـتكينا بأعمـاقها أياما .. أتـوارى فى خبايا نفسـها - ثم ترتطـم بى .. أجـس بها تتـعـرفنى ، ثـم تقـاومنى ، لكنهـا كـانت تعـرف .. كـانت تعرف .

وهكذا ، عندما همست مربيتها العجوز بأذنها أنه ربما عمل لها أحدهم عملا حتى لا تحمل ، أصغت . سألتها العجوز :

«مش جايز ؟ مين عارف ؟ إنت صغيـرة ، وحلوة ، والحظ مسايرك، وتجذبى عين الحسود» .

أجابتها عائشة مسائلة :

«ومين فى الدنيا يعمل لى عمل يا دادة ؟ واشمعنى فى الحمل بالذات ؟» .

أجابتها المربية متطلعة إليها بعينها الواحدة السليمة :

«معمول لك عمل ، ولابد من حله» .

هناك عمل ، لكنه لن يحل . كيف يحل وهى لا تعشقه ؟ على المرأة أن تعشق رجلها . وهى : هى حين يلمسها تتراجع عنه ، وحين يدخلها توصد أبوابها على ذاتها . رأيتهما : رأيتهما فى فراشهما الوثير الناعم ، وسط الوسائد الريش

المطرزة . رأيتها تبعد عينيها عن التلطف البادى على وجهه عندما يحاول ، مترددا ، استثارة رغبتها ، وتنكمش أمام القناع الصارم الذى يغطى ملامحه عندما يستسلم ، فى النهاية ، لشهوته . رأيتها تدير رأسها ، توجه نظرها إلى نقوش الحائط ، أو إلى زخارف وسادتها . ورأيتهما – عندما تلتقي نظراتهما مصادفة – يتبادلان ابتسامات متأدبة ، كغريبين داس أحدهما على قدم الآخر فى حفل فى سفارة .

– «إنت يا بنتي مش عملتى كل اللى قالولك عليه الحكما .. مش كده ؟ والكشف ، والكوى ، والدهان .. مش كل ده عملتيه ؟»

– «أيوه»

– «وجوزك . ما هو فات فيه برضوه هو راخر . سابهم يكشفوا عليه ، ويمسكوه، ويفعصوه ، ويعصروه . ولابد ده كلفه غالى . أنت عارفة الرجال ما تحبش الحاجات دى . إنت عايزاه يشك فى روحه ؟ الحاجات دى مش كويسة عشانه . لازم تعملى حاجة» .

أصغت عائشة إلى مربيتها كما أصغت طوال سبعة وعشرين عاما . آه يا زينة.. تعتقدين أنك حكيمة .. أنك تعلمين كل شئ عنها : ربيبتك الأولى .. فخرك وقرة عينك . تتسلل إلى داخل البيت فى حذر من الباب الخلفى ، وسبابتها على شفتيها : «شش ! لا تخبرى أحدا يا دادة .. حذار» .

تخلع حذاءها ذى الكعب العالى ، وتعطيه لك تخبئينه ، ثم تجول بالشبشب ببراءة ، تحيى والديها . والدها : ابنتك هى أكثر مما هى ابنتهما . هل كنت تعلمين طيلة السنوات الماضية ؟ حال الوقت ، وستذكرينها بنا .. بى ، وسوف تصغى .. كما اعتادت دائما .

– «طيب ، نقول ما حدش عامل لك عمل .. يمكن أنت عملتى حاجة .. ربما زعلتيهم » .

– «مين ؟ زعلت مين ؟ إحنا حنرجع تانى نتكلم عن «هم» يا دادة ؟ ما حنا شبنا الحواديت دى من زمان » .

– «اسكتى يا بنتى .. متتكلميش كده ، يسمعوكى استغفر الله . دول أقراننا يا حبيبتى .. أسيادنا ، ولازم نسعدهم ونرضيهم وإلا يركبونا ، وما يسيبوناش نستريح أبدا . أنت عارفة كل حاجة : حكيت لك ألف حكاية وحكاية من وأنت صغيرة ، وكنت تسمعى – وتقولى عايزة تانى » .

حكيمة .. عجوز حكيمة أنت يازينة .. تفوح رائحة الكزبرة المحمصة زكية ونفاذة من ملعقتك الخشبية ، بينما تروح فتياتك وتجئ بين مطبخك وحجرة طعامهما . قولى لها الآن .. قولى لها عن سيدى أبو السعود وزوجته الست حبيبة ، فقد أحبت عائشة قصصك دائما .

– «مش حاقول لك نروح لشيخ بعيد ، ومش حاقول لك نعمل زار ، لكن وماله لما نروح نزور سيدى أبو السعود ؟ حاجى معاكى ، نزوره ، ونزور الست حبيبة ، ونصلى ركعتين ، ونطلب منها تفتكرك ، ونقول لها انك محتاجة حتة عيل » .

– «وكل ده ، ماله ومال «هم» ؟» .

– «بيقيموا حضرة كل ثلاثاء . نروح نشوف . ربنا كريم يا بنتى» .

نعم . الله كريم ، ويتجلى كرمه فى صور كثيرة .

الثلاثاء :

يقع التل الرملي على الحدود بين المدينة والصحراء الشرقية ، هو اليوم شديد الازدحام : عربات محملة باليوسفي الناضج ، وعربات للحلوى الرخيصة ، الطراطير ، الصفارات ، والحصالات ، الطبل مختلفة الأحجام ، والحلى الزجاجية البراقة والبلاستك ، المسابح ذات الشرابات . بائع يجلس متربعا فوق عربة ، يروح على الذرة يشويه على الفحم ، تحوطه أكوام صغيرة من أكواز الذرة التى لم تفصل عن قشرتها الخضراء بعد . بين حين وآخر ، ينتقى كوزا ، ينزع عنه قشرته ، يضعه برفق على الفحم المشتعل ، ويصير يقلبه ، وعندما ينضج ، ويتلون بلون ذهبى ، يلفه فى قشرة لا يحرص على أن تكون قشرته ، يناوله إلى أحد الزبائن المنتظرين .

زبائنه على امتداد منحدر التل : نساء بجلابيب سوداء يصطحبن أطفالهن . منتشرات فى كل مكان . يجلس بعضهن على الأرض فى مجموعات صغيرة يتبادلن الحديث . يأكلن اليوسفى ، ويلقين بالبذور ، ويرضعن أطفالهن : تزدحم الشابات منهن حول أكشاك الحلى يساومن على العقود الزجاجية ، يتمدد بعضهن على الرمال وسط بذور اليوسفى ، وأوراق الذره الخضراء المنتشرة : والطرحة على وجوههن للحماية من الأتربة ، والذباب ، غارقات فى النوم ، هنا ، لا يوجد رجال سوى من لهم عمل .. سوى الباعة .

من جهة الشمال ، يحد الجموع الطريق الواسع السريع ، يحتضن الحدود الشرقية للقاهرة ، فاصلا المدينة عن جبل المقطم والصحراء من ورائه ، وفاصلا أيضا بين مدينة الأحياء ومدينة الأموات ، من جهة الجنوب ، تقوم أربع خيام ملونة يتعالى منها صوت دقات الطبول ، وحول مداخلها تزدحم النساء ما بين جالسة وراكعة وواقفة . التل يبدأ فى مصر العتيقة ، بمدافنها المسيحية القديمة ، ويقوم – على ربوته – جامع سيدى أبو السعود جراح القلوب .

ها هما تأتيان : تتسلقان منحدر التل، وتسيران سط الزحام . تختلط زينة بزحمة النساء في يسر في جلبابها الأسود والطرحة السوداء ، أما عائشة ، فمن الواضح أنها خفضت من مستوى أناقتها المعتاد : بنطلون بيج قديم نسبيا ، وحذاء بدون كعب ، وجاكيت خفيف فضفاض ، تحته قميص رجالي من القطن الأبيض .. شعرها معقود في ذيل حصان .. لا مساحيق ، ولا حلي ، ولا حتى ساعة، اختفت السلسلة الذهبية من حول رقبتها ، وكذلك دبلة الزواج من إصبعها . تسترعي انتباه النساء رغم ذلك ، فيتوقفن ليتابعنها ببصرهن . فخور بها أنا ، وسعيد ، و - نعم .. انتظر ، أتأهب ، أستعد ، آمل - أن تأتي منها اليوم إشارة - كلمة ، حركة ، إيماءة - يكون من الصعب أن تحنث بها فيما بعد - أن تتنصل منها .

« مين دي ؟ إيه اللي جابها هنا ؟ »

«خواجاية دي إلا إيه ؟ »

« لأ ، لأ . ماشكلهاش خواجاية »

«تكونش صحفية ؟»

«إحنا مش عايزين صحفيين هنا »

فجأة تطل على المربية العجوز المسافة بينهما وبين الجامع ، فتلوذ بظل أقرب خيمة إلى يمينها تتبعها عائشة . تقول زينة :

«نزور الشيخ بعدين ، تعالي نبدأ بالحضرة »

تشقان طريقهما وسط الزحام في مدخل الخيمة . تربت المربية على ظهور النساء بيدها - «عن إذنك .. عن إذنك ياختي» ، وهي تسحب عائشة خلفها باليد الأخرى . تدفع عائشة رسم الدخول للمرأة الجالسة على المدخل ، ثم تتخذان طريقهما إلى الداخل ، تعبران بخرض أجساد النساء والأطفال الذين افترشوا

الأرض ، وتتجهان إلى ركن قصي . تجلس العجوز على الأرض في حين تظل عائشة واقفة ، مستندة إلى جدار الخيمة ، عاقدة يديها وراء ظهرها .

الجو معبق بالدخان ، تمتزج رائحة العرق برائحة المسك والعنبر والبخور ، وهناك رائحة أخرى ، حلوة ، ونفاذة ، تشمها عائشة ولا تتعرف عليها .

تجلس الفرقة بطرف الخيمة : أربعة رجال وامرأة : ليس معهم سوى الطبول والدفوف ، وهم الآن في فترة راحة ، جالسون على الحصائر يدخنون لفافات التبغ ، ويتحدثون ، ويراقبون جمهورهم . تنظر عائشة إلى اللفافات ، وتدرك أنها تشم رائحة الحشيش لأول مرة : ترصد الفارق بين الفرقة والجمهور .. المرأة تجلس براحتها ، ساقها اليسرى مثنية تحتها ، واليمنى يستند على ركبتها الرسغ المسبك بلفافة التبغ . ترتدي جلبابا طويلا مشجرا ، ورأسها معصوب بمنديل أحمر يظهر غالبية شعرها . أكمامها مشمرة ، ومعصماها تغطيهما الأساور الذهبية تعكس أسنانها الذهبية وميضها . تضع - إضافة إلى الكحل - أحمر الشفاة ، وظل الجفون الأخضر ، قدماها عريضتان ، خشنتان ، على أظافرهما بقايا من طلاء قرمزي فاقع .

أرى عائشة تضرب برقة على يد صغيرة انسلت من تحت جدار الخيمة لتداعب كاحلها .

تستعد الفرقة الآن .. يطفئون سجائرهم ، يضعونها في جيوبهم .. يعيدون أكواب الشاي الفارغة إلى سيدة المدخل . يقف رجلان وبيد كل منهما دف ، بينما تعدل المرأة صدر جلبابها ، وتضبط الطبلة تحت إبطها الأيسر ، تنقر عليها عدة نقرات تمهيدية . يدب النشاط في النسوة الجالسات على الأرض ، يبدأن في الصياح بأسماء عدد من الأغاني .

يبتسم أحد العازفين ابتسامة عريضة ، فتظهر فجوة في منتصف أسنانه الكبيرة المسودة ، يحل عمامته فينسدل شعره على كتفيه طويلا ناعما .. عيناه

سوداوان براقتان مكحولتان ، وجلبابه رث رمادى اللون ، يرتفع عن قدميه بعدة سنتيمترات . ساقيه رفيعتان ، بياضهما غير متوقع .

عندما يبدأ النغم ، ويتحدد الإيقاع ، ينفصل عدد من النساء عن مجموعاتهن متجهات إلى حلقة أمام العازفين . يتركن أطفالهن ، يناولن الرضع إلى أقرب الجارات ، يسرن باتجاه الحلقة . تظهر عليهن فى البداية مظاهر الحرج أمام العازفين وجمهرة المتفرجين ، ثم يتلاشى الكسوف مع ارتفاع النغم وزيادة الحماسة ، ليستيطر الأسياد على الموقف ، مطالبين بالأجساد التى يتملكونها . تتقافز النسوة ، ويتمايلن مطوحات برءوسهن يمينا ويسارا ، وعيونهن مغمضة . يجلس الأطفال على الأرض فى سكون محملقين فى أمهاتهم الراقصات : تسيب الطرح ، تنزلف المناديل ، ويتناثر الشعر هنا وهناك . ومع ارتفاع الأذرع ترتفع الجلابيب السوداء ، لتظهر من تحتها السيقان الملساء قمحية اللون ، بعضها عار محلى بخلاخيل معدنية سميكة ، بعضها يتوارى فى سراويل بيجامات مشجرة . كلهن يدبدبن ، يتلوين ، ويدرن — انظرى .. انظرى كيف ترقص النسوة، كيف يخضعن لأسيادهن .. انظرى ، وتأملى ، واستوعبى .

يخطر ببال عائشة وهى تجول ببصرها فيما حولها من وجوه ذاهلة أنها فى حفل من حفلات باخوس التى قرأت عنها . ترى امرأة ترقص فى هدوء .. تستكين أهدابها السوداء الطويلة على خدها الأملس ، ويرتسم على إحدى زاويتى فمها ما يشبه الابتسامة . تقطب أخرى جبينها فى تركيز ، يرتفع طرف لسانها ليلمس شفتها العليا . تتخذ كثيرات مواقف تضرع مختلفة ، فى حين تجز البعض على أسنانهن ويتعلقن بشعورهن . تهمس لنفسها فى عجب أنها فى حضرة الإله الإغريقى القديم ، ما فى ذلك شك . نعم ، غريب أنك قرأت عنها ، وأنك فى طفولتك وقعت على صور فى كتب كبيرة ضخمة ، بينما انتظرت أنا .. انتظرت كل تلك السنين .. ثم رفضت كل ذلك ، وقررت أنه عالم بعيد ، اندثر منذ أزمنة سحيقة .

بأى حق قررت ؟ بأى معرفة ؟ والآن ؟ هل عرفت ؟ إنه هنا . عالم ينتظر ، على قيد خطوات منك . هل رأيت ؟

تنسل يد صغيرة عبر جدار الخيمة ، وتمسك بطرف سروالها . تركل عائشة الجدار ركلة خفيفة ، وتبعد ساقها .

يركز أحد ضاربى الدف انتباهه على امرأتين لم يندمجا مثل الأخريات ، متنبهتين إلى خطواتهما ، فى مقاومة للاستسلام . يجمعهما معا ، ويشبك أيديهما . يأخذ فى الضرب على الدف ، يهزه بين أيديهما صائحا مع الإيقاع ، فلا تلبثان أن تصرخا بدورهما وأيديهما مشتبكة ورأساهما يتطوحان ، تحل الطرح ، تهبط على الأكتاف . يبلغ الطبل الآن ذروته ، وتبدأ الراقصات ، وهن يتصببن عرقا ، فى التعثر والسقوط ، واحدة تلو الأخرى . يتلمس بعضهن الطريق إلى موضعهن الأول، ثم يتساقطن منهكات بجانب كومة الأطفال ، وتستمر أخريات إلى نهاية الرقصة ، ثم يتخذن طريق العودة فى صمت ، مترنحات ، ورءوسهن منكسة . تنهار امرأة وسط الحلبة مجهشة بالبكاء ، فتسحبها أخرى إلى موقع بعيد ، تحاول إفاقتها، بينما يعلو الصياح فى طلب الأغنية التالية .

تجثو عائشة على ركبيتها ، وتتسلل ، بحرص ، تجاه فاقدة الوعى ، حتى تصبح خلفها تماما ، ترى المرأة التى تعتنى بها تميل عليها لتضع فمها على إحدى أذنيها وتصيح «الله أكبر ! الله أكبر» تدير رأسها ، تضع فمها على الأذن الأخرى لتعيد التكبير ، ثم تشرع فى تدليك الصدر اللاهث بإحدى يديها فى حين تثبت يدها الأخرى كتفى المرأة . «بسم الله ، بسم الله ، ارحمها ، ارحمها لأجل خاطر النبى ، كفاية ، شايف ؟ ياللا يا خويا ، ياللا يا سيدى ، سيبها فى حالها شوية ، ده أنت قاسى قوى ، والنبى قاسى ، مش شايف اللى عملته ؟» تتأمل عائشة من حولها من النسوة .. تمصمص بعضهن الشفاه رثاء ، ولكن فى الحقيقة لا أحد ينصت – لا يا عائشة ، لا يجدن هذا شاذا ولا مستغربا تلك الألفة التى

تخاطب بها المرأة الروح الغريبة اللابسة . وانظرى كيف يهدأ اللهاث ، وتسيل الدموع الملطفة من العينين المغمضتين ؟ انظرى .. تأملى ..

تتسلل عائشة بحرص عائدة أدراجها ، حيث تدفن نفسها وسط النساء ، جالسة القرفصاء على الأرض ، بجانب مربيتها . أراها تغمض عينيها ، وتستند إلى الحائط القماشى .

تبدأ الموسيقى مرة أخرى . وتفتح عائشة عينيها منتصبة على إثر لطمة مازحة من خلف الحائط ، لترى وافدا جديدا يقف بالمدخل : رجل .. ولد .. ؟ لا - أرقبها هى تقرر .. شاب ، أقرب إلى الرجل منه إلى الولد .. من الواضح أنه لاينتمى إلى فرقة العازفين ، فهو لايحمل آله موسيقية . يقف وحده ، لا يرتدى جلبابا ، بل سروالا جلديا أسود ، من النوع الرخيص ، ينتهى طرفاه داخل بوت بلاستيكى أسود يكاد يصل إلى ركبتيه . يقف بثبات على أرض الخيمة المتربة ، وتدل أكمام الفانلة الزرقاء على ما تحتها من عضل مفتول . شعره مجعد ، بنى اللون ، بالغ القصر . يجول ببصره فى أرجاء الخيمة بابتسامة واسعة منتشية . تتوقف عيناه على وجه عائشة لحظة ، فتتجه الابتسامة لها - ثم يتعالى ضجيج وجلبة على المدخل خلفه . يتنحى جانبا يفسح الطريق .. تدفع امرأتان طريقهما فى جلبة الزحام . تتعاونان على حمل جسد كبير ساكن فى جلباب مزهر يستتر وجهه وراء حجاب .

تتعثر المرأتان فى طريقهما إلى الداخل . تلتف أذرعتهما حول الثالثة ، ويسحبانها ، بحثا عن بقعة خالية ، قبل أن تنزلق وتفلت منهما إلى الأرض . يخطو الشاب الواقف بالمدخل باتجاههن ، ويضع ذراعيه حول المرأة المحجبة ، ليرفعها ، ويمضى بها حاملا ساحبا إلى أقصى أركان الخيمة ، بعيدا عن المدخل ، ويرقدها على الأرض . تجلس رفيقتاها إلى جوارها ، مغمغمتين بكلمات الشكر ، والدعاء له بدوام العافية والشهامة . تروح كل واحدة منهن على وجهها بطرحتها ، وتمسح

جبهتها وفمها بمنديل رجالي كبير تسحبه من صدرها . تلتفتان إلى الراقدة بجوارهما ، تعدلان من وضع جلبابها ، وتقيمان رأسها ، وترفعان الخجاب من على وجهها . تختلس عائشة النظر : إنها فتاة ، لا تزيد على خمسة عشر عاما ، ليست قبيحة ولكن .. شعرها مشعث لزج بالعرق ، عيناها مفتوحتان مقلوبتان لا يظهر منهما سوى البياض ، فمها فاغر يسيل منه خيط رفيع من اللعاب يبلل جانب وجهها ، يتطلع الشاب إليها قائلا : « حرام ، دي صغيرة » تنحني إحدى المرأتين لتمسح فم الفتاة : «مايوريكش في غالي يا رب» ، يرفع عينيه فيلمح وجه عائشة اليقظ المتفرج ، ثم يراها تستدير لتركل الجدار القماشي الملون في صبر نافذ ، أراه يعبر المسافة إليها ، في حرص ، ينزل بقدمه في المسافات الصغيرة الخالية ، بين النساء الجالسات على الأرض ، يصل إليها ، فيتوقف يومئ باتجاه الجدار قائلا : «العيال بتضايقك؟» يصلها صوته وسط دقات الطبول ، ترفع كتفيها في استسلام يرفع الجدار القماشي وينسلت من تحته إلى الجانب الآخر . تسمعه: «إنت يا واد يا خول يابن الكلب» ترمق مربيتها فتراها مغمضة العينين ، تهتز مع الموسيقى . يعود بعد لحظة . أما أنا ، فأعلم ما يدور برأسها : ليس طويلا ، ليس وسيما ، وإنما له حضور ، له حضور وسط الخيمة المزدحمة ، وملابسه .. الجلد الأسود .. آه يا عائشة .. آه .. تبتسم ، ويرد ابتسامها في بساطة قائلا :

– « أول مرة تيجي هنا ؟ »

تومئ بالإيجاب ، فصوت الطبول يطغى على أي محاولة لرفع صوتها . يتفحصها قائلا :

– «إنت مصرية ؟»

تومىء مرة أخرى : «طبعا» انتظر السؤال التالي ، ولكنه لا يأتي ، هل كانت تجيب إذا سألها أين تقطن ؟

– «مادخلتيش الحلقة ؟»

تهز رأسها بالنفى .

- «ليه ؟»

لاتجيب ، فيبتسم ابتسامة عريضة سائلا :

- «يعنى ماعليكيش عفريت ؟»

لاتتسرع بالإجابة . تأخذ وقتها ثم تقول .. بجدية :

- « مش عارفة»

نتقدم . نتقدم ، هذا أفضل كثيرا من جواب ساخر ، أو من القطع بالنفى . يسأل :

- «زرتى الشيخ ؟»

- «لأ ، لسه»

- «طيب ، لما تخلصى هنا ، أنا اطلعك تزوريه ، بلاش تمشى هنا لوحدك ، دى حتتنا وماحدش حيضايقك وأنت معايا » - ثم يكمل حين يراها تتجه بنظرها إلى العازفين :

- «أنا مش بتاع زار . شايفانى شكلى كوديا ؟»

يفرد قامته ويبتسم ابتسامة عريضة وهو يقول :

- «دى ناس لا مؤاخذة وسخة .. حرامية مجرمين . محسوبك جزار .. أبويا معلم كبير .. هنا فى المدبح ، وأنا كبير اخواتى ، يعنى سنة والا اتنين يقولولى يا معلم ، والمدبح كله عارفنى . أنا باجى هنا عشان باحب الطبل بتاعهم . ده هو ممنوع الرجالة تخش هنا أبدا ، بس هم عارفينى ، وعارفين انى جدع يعنى ، ثم أنا عندى اخوات بنات ، وكمان .. دى حتتنا » .

يصمت برهه ، ثم يقول :

– «اسمى فرج .. خدامك»

يمد يده .. تمد عائشة يدها بدورها ، وكأنهما ، العجب ، حضور بإحدى الحفلات الراقية . تقول :

– «اسمى عائشة » ويتصافحان .

«عائشة ؟ عيشة يعنى ؟»

– « لأ : عائشة »

يبتسم قائلا :

– «طيب . حارجعلك بعدين . بس لازم تفقرى قبل ما تمشى ، ما هو زى الرقص يعنى ، انتبهى للأسياد » .

يرعش يديه فى حركة ضاحكة ، ثم يعود يقول – مشيرا إلى جدار الخيمة :

– «والعيال دى مش حتضايقك تانى . حتشوفى» .

عظيم. عظيم يا عائشة ، تحضرين زارا . تجلسين على الأرض المتربة . تصادقين جزارا . جزارا مبتدئا ، مشروع معلم . ماذا يقول زوجك فى ذلك ؟ ماذا تقول الناس ؟ أراها تبتسم : لم تحبذ خالتها ذهابها إلى الحضرة ، قالت لها :

– «بلاش . بلاش يا عائشة .. عشان خاطرى .. ماتروحيش .. انت عارفة الدكتور صبحى ، زميلى ؟ بنته بقت تروح الأماكن دى ، وتحضر الزار الحضرة والكلام ده ، وبقت تقعد مع الناس دى وما حدش قادر يحوشها ، وتفقر ، وتطور ، وتدوخ ، والكلام ده كله . تقع فى الأرض كده وتتمرغ فى التراب ، وفى يوم فاقت من نوبة من دول لقت نفسها متجوزة – والله العظيم : مكتوب كتابه . دول عالم أشرار مجرمين . تصدقى جوزوها قزم ؟ واحد منهم . تقرفى بتصيلة . راسه قد كده .. فاقت ، لقته قاعد يبص لها بكل بجاحة ، وفى إيده قسيمة الجواز ، عليها إمضتها . الدكتور صبحى دفع الألف جنيه منغير ما ينطق . يشترى بنته» .

تبتسم عائشة مرة أخرى

منذ زمن طويل لم أر هذه البسمة .

ينتهي لحن ، ويبدأ آخر . يبدو أنه اللحن الخاص بسيد إحدى المرأتين اللتين حضرتا ومعهما الفتاة الذاهلة . تستند زينة إلى الحائط وعيناها مغلقتان ، محاولة جمع شتات نفسها من اللحن السابق ، بينما يتركها سيدها راضيا ، ويرحل في سلام . أرى عائشة الآن تتخذ طريقها بهدوء على يديها وركبتيها تجاه الفتاة الذاهلة . تجلس في مكان خال على الأرض بجانبها . تتحسس جبهة الفتاة بإحدى يديها ، رطبة ، باردة .. عيناها مقلوبتان .. فكها متراخ .. فمها مفتوح . تلتفت عائشة إلى المرأة الجالسة بجوارها وتسألها :

– « من إمتى وهي كده» ؟

تتطلع إليها المرأة بارتياب ، لكن عائشة تواجه نظرتها بثبات ، ويدها على جبهة الفتاة ، فتذعن المرأة وتجيب :

– «أربع شهور واحنا نحط لها الأكل في بقها ، وننضفها نغير لها زي العيل في اللفة وهي ، ماشاء الله ، عروسة ، ربنا يصبر أمها . شافت أيام صعبة قوي» .

– «ربنا يصبرها .. إنت تبقى خالتها ؟»

«خالتها ، أيوه ، بس زي بنتي تمام ، ماحنا قاعدين كلنا سوا ، صعب ، صعب قوي . ده احنا جايين من البحيرة .. طريق بعيد يعني . يومين واحنا مسافرين . بس أهو ربنا كريم ، وقف لنا ولاد الحلال . يا رب ما نرجع مكسورين الخاطر يارب . قالوا لنا مش حيشفيها إلا سيدي أبو السعود جراح القلوب . واديحنا جينا يارب ترجعنا مجبورين يارب» .

– «زرتوا ؟»

– «أمال إيه ؟ أول شئ ، زرنا ، وصلينا ، ودعينا . ودعينا عند الست حبيبة . ولفينا بالبيت سبع مرات حوالين الضريح . أبوها حالف يدبح خروف ، ويوزعه كله، وده راجل غلبان يعني ، على قد حاله . ربنا يعينه ادعيلنا يا بنتي » .

ترد عائشة تلقائيا :

– «ربنا ياخد بيدها ويشفيها » .

ثم تلقي نظرة إلى جسد الفتاة المستلقي أمامها ثم تسأل :

– «طب وهو – إيه يعني اللي خلي ده يحصل لها ؟»

يعاود المرأة الارتياب ، لكن عائشة تنتظر الإجابة : تعرف أن المرأة ستتكلم ، فقد بدأت تتعلم . تستدير المرأة إليها ، وتجيب ، وقد أخفضت من صوتها :

– «شافت قتيل . اتاخرت في الأرض ليلة ، جت راجعة ، ماشية في السكة ، اتكعبلت زي ما تقولي في شئ تقيل ، قام وقعت ، وقعت فوقه . طلع – بعيد عنك – ميت ، يا عيني ميت – لسه حتى ما بردش . رجعت تجري على البيت وجلابيتها كلها دم – واهي من ساعتها على الحال ده » .

– «ماوديتوهاش لدكتور ؟ »

– « دكتور ؟ وحيعمل لها إيه الدكتور ؟ دي حاجات مش بتاعت دكاترة » .

حين تعود عائشة إلى مربيتها تجد زينة تنظر عبر الخيمة وقد ضيقت عينيها :

– «الراجل ده دخل هنا إزاي ؟ ده مش بتاع زار – ده جزار . سايبينه يخش إزاي ؟» .

يقظة هذه العجوز . يقظة ، وسريعة ، وجادة .

تتطلع عائشة إليها متسائلة :

– «وأنت عرفتي منين انه جزار يا دادة ؟»

.. فرج الآن وسط الراقصات .. رأسه ملقى إلى الخلف .. عيناه مغلقتان .. ذراعاه مرفوعتان .. كفاه الكبيرتان مفرودتان ، وأصابعه متباعدة ، وجسده كله يهتز بقوة. يفتح عينيه للحظة ويبتسم ، وجهه يقظ تماما .

– «جزار من السلخانة ، ماهو لابس لبس السلخانة أهه»

– «اشمعنى ؟ اشمعنى يعنى ده لبس السلخانة ؟»

– «عشان بلاستيك يابنتى .. بلاستيك وجلد .. هو انت ماتعرفيش حاجة أبدا ؟ عشان لما يتعاص دم يغسلوه بالخرطوم كده على طول .. دول طول النهار دبيح دبيح؟ فى الدم لركبهم .. بس إينه ياختى اللى دخله هنا ؟ »

لم توجه السؤال إلى أحد بالتحديد ، ولكن عائشة تتطوع بالإجابة :

– «بيقول بيسيبوه يخش عشان عارفين إنه شهم وجدع – وبيحب الزار » .

تصعق العجوز :

– «وأنت إيش عرفك ؟ إنت كلمتيه ؟»

– « هو جه زعق للعيال ومشاهم .. العيال اللى كانوا بيعاكسونى من ورا الخيمة».

تصيمت زينة .

– «وبيقول إنه حيطلعنا نزور الشيخ بعدين»

– «يطلعنا هو ليه ؟ ماحنا رجلينا حتطلعنا »

– «بيقول خطر . بيقول ممكن حد يضايقنا وإلا حاجة ، وكمان دى حتته وهو عارفها » .

تمصمص المربية شفتيها قائلة بسخرية :

– «نعم ؟ حتته ؟ فتوة يعنى؟ إحنا مالناش دعوة بيه ، لنا رجلين نمشي عليها».

–«ليه بس يا دادة ؟ إيه الضرر يعنى ؟ ده كان مهذب جدا ، وكمان خوف الأولاد » .

– «باقولك مالناش دعوة بيه » .

تلزم عائشة الصمت ، فبالطبع لن يعجب فرج دادة زينة .

هذه الرقصة مفعمة أكثر من سابقاتها ، والسبب يرجع إلى مشاركته فيها . ويصيح الجميع : «احترسوا ! احترسوا ! عيناه الناريتان .. شعره » . تقطع عائشة استرسال أفكارها .. كفى حماقة ، ماله ومالشاعر أجنبى قديم ؟ تهز رأسها . يا عائشة .. تعرفين عن الفن أكثر مما تعرفين عن الحياة . هنا الحياة ، هنا تحيط بك ، تدوى فى أذنيك ، ترقص أمام عينيك ، تشمينها ، تستشعرينها ، فتتكورين فى حمى مربيتك تسترجعين الشعر – والشعر الأجنبى كمان . وهل كتب الشعراء أشعارهم وهم فى مأمن يحتمون – تلكزها زينة وتهمس :

– «بصى ، بصى ، حيرقصوها . لا حول الله ، بنية صغيرة ، ربنا معاها » .

تسند المرأتان الشابة الذاهلة ، تجذبانها ، تحملانها إلى حلبة الرقص ، بينما يدخل العازفون فى اللحن التالى ، الذى يمكن تمييزه الآن . تصيح إحدى النساء :

– «بترد عالدقة ياخواتي ! بترد عالدقة ! رحمتك يارب ! »

مازال رأس الفتاة ملقى إلى الخلف ، وقدماها تجران فى الأرض ، وجسدها يرمى بثقله كله على أذرع أمها وخالتها . تتسارع الموسيقى ، ويدنو ضاربو الدفوف منها ، تلزم النساء الأخريات طرف الحلقة حتى يسمحن بأكبر مساحة لهذه المجموعة الصغيرة ، لاتكتفى الأم والخالة الآن بإبقاء الفتاة واقفة ، وتحاولان تحريك جسمها مع إيقاع الموسيقى . تسندها الخالة تماما مثلما يسند السكارى فى الأفلام التى شاهدتها عائشة : ذراعها حول وسط الفتاة ، وذراع الفتاة حول كتفيها ، تحاول القفز بها ، ولكنها لاتستطيع سوى اهتزازات وتمايلات بسيطة

تحت ثقل الفتاة ، يميل رأس الشابة إلى الأمام ويستلقى على كتف الأم التى تساندها من الجهة الأخرى . تتصاعد الموسيقى ، وتتصبب المرأتان عرقا وهما تكافحان . لم يعد باستطاعتهما المواصلة ، ويبدأ جسمها فى الانزلاق من بين أيديهم ، فرج الجزار ، الواقف عند المدخل ، يتقدم نحوهن . مرة أخرى ينحى المرأتين جانبا ، ويلتقط الفتاة من خصرها ويعاود إيقافها . يرقص بها . يرقص بها ، يحركها ، يهزها ، فى حين يضرب العازفون بالدفوف فوق رأسها ، ويصيحون فى أذنيها . يثب فى الهواء ويأخذها معه ، يثب ، يدور ، ويهزها فيتحرك رأسها يمينا ويسارا ، ثم يقوم . لاتزال متأرجحة وغير ثابتة ، ولكنها فى حال أفضل بالتأكيد . أمام عينى عائشة ، عينين حشدت فيهما تركيزها كله ، تغمض الفتاة عينيها ، وتعتدل قدماها ، الحافيتان ، المدملكتان ، فتتحسسان موقعا ثابتا فى الأرض ، تقرع الطبالة طبلتها ، وتنشد مع دقاتها أغنية صاخبة نشوانة ، تزداد حماسة ضاربى الدفوف فيدورون ويثبون ويصيحون ، الراقصات الآن راحت منهن الطرح ومناديل الرأس ، وحتى ضفائرهن حلت ، لتطير شعورهن شعرة شعرة متحررة فى الهواء ، وفى مركز الحضرة ، بين ذراعى الجزار ، تحايل الفتاة سيدها المنزعج ، فيتصالح ، ويهدأ .

أعايش هذه القصة مرات ومرات فى انتظار عودتها إلىّ . هل كان يمكن أن تسير الأمور مسارا آخر ؟ هل كان على وقتها أن أدفعها – أن أجبرها أن ترقص لى ؟ شعرت أنها ستقاومنى ، وأن الوقت لم يحن بعد . انتظرت طويلا ، ولم يكن يضيرنى الانتظار لفترة أخرى . ثم التقت هى بفرج الجزار .

تخرج عائشة ومربيتها من باب الخيمة ، فتجدان الهواء خفيفا منعشا بعد ثقل رائحة العرق ، والدخان ، والبخور بالداخل . تظللان العينين من ضوء الشمس المنعكس من رمال الأرض البيضاء ، وتصلهما جلبة الأصوات متفرقة ، وأقل كثافة . تبدآن فى الصعود إلى قمة التل ، إلى الجامع . تستشعر عائشة فى عينيها حرقانا خفيفا ، فى رأسها مساحات خالية مضيئة ، وكأنها قد شربت كأسا من

النبيذ، ركبتاها ترتجفان قليلا ، ودادة زينة تتكئ عليها بثقلها كله . يلتف حولهما أولاد كثيرون ، مطلقين الضحكات والتعليقات ، تزداد جرأتهم بسبب الإرهاق البادى على المرأتين ، فيقتربون أكثر ويمدون أيديهم : يلمسون يد عائشة ويشدون ملابسها .

– «حد شاف فرج الجزار ؟»

كان للسؤال مفعول السحر :

– «أيوه ، أيوه . حاروح اناديه »

ينطلق سرب من الأولاد الصغار ، يتسابقون إلى الخيام ، في حين لاتنبس زينة ببنت شفة . تسأل بعد برهة :

– «هى الساعة كام ؟ »

تهز عائشة كتفيها قائلة :

– «مش قلتى ما اجيبش ساعتى ؟ أهى تطلع حوالى أربعة »

– «أربعة ؟ ده إحنا لازم نستعجل هو البيه مستنظرك إمتى ؟»

– «أنا ماقلتلوش حاجة »

ترفع زينة رأسها لتحملق بعينها فى وجه عائشة :

– «إزاى يعنى ماقلتيش حاجة ؟»

– «خرج بدرى – مالحقتش أتكلم معاه قبل ما يخرج » .

– «وناوية تقوليله ؟»

– «إني جيت هنا ؟ لأ ، لأ يا دادة . حيقول على عبيطة » .

– «عبيطة ؟ مين يستجرى يقول عليكى عبيطة ؟ » أدركهما فرج الجزار ، أضاف متسائلا :

– «العيال بتضايقكم ؟ قولولى بس مين فيهم وأنا أدبحه» .

يستدير فجأة ، فتتراجع حلقة الأطفال منتشية ، خائفة ، تطلق الضحكات ، يصيح فيهم :

– «هو إيه ؟ قراجوز ؟ دافعين حق الفرجة ؟ ياللا يا واد منك له »

وحين يستمرون فى الضحك ، يلتقط حجرا ، ملوحا به فى وجوههم ، ومهددا كأنه يلوح لمجموعة من الكلاب .. يتباعد الأطفال . ينصرف بعضهم ، بينما يتراجع البعض الآخر ويبقى على مسافة آمنة .

وصلوا إلى سور المسجد . بالسور فتحة ضيقة يحاول جمع من الناس الدخول منها ، يسد طريقهم آخرون يحاولون الخروج ، يتقدم فرج موسعا الطريق ، صائحا فى الزحام :

«لو سمحت .. لو سمحت يا أمى .. توسعى شوية كده يا أختى .. حبة بس .. أيوه كده .. ياللا .. ياللا ... » وهكذا يشجعهم ، ويجتاز بهم عنق الزجاجة ، فيدنو من حائط الجامع نفسه ، وزينة تلهث ، وهى تجفف العرق من على وجهها ، وتربت على صدر الشاب وتقول :

– « كتر خيرك .. ولا كنا حنوصل لولاك . أنا نسيت يابنى – نسيت الزحام شكله إيه » ابتسم هو لعائشة قائلا :

– «تمام ؟ » فأومأت أردف ، محتفظا بابتسامته :

– «زحمة» . قالت :

– «أيوه ، فعلا »

– «خشى بقى زورى ، جوه مش زحمة ، أنا منتظركم هنا»

تدعو له المربية مرة أخرى :

– «كتر خيرك يا بنى» .

تتقدم زينة ، وتتبعها عائشة ، تتوقفان أمام الباب وتخلعان الحذاء . تتلفت عائشة حولها ، متوقعة رؤية حارس ، من الذين تراهم عادة ، أمام أبواب المساجد التاريخية ، ولكنها لا ترى أحدا منهم ، تدس زينة حذاءها تحت إبطها ، ملصقة النعلين معا ، وتقلدها عائشة ، ثم تخطوان على الأرضية الرخامية ، الملساء الباردة . عتمة ورائحة بخور ، نساء يرتدين السواد ، يجلسن القرفصاء على البلاط الأبيض ، وأمام شبابيك الضريح الحديدية ، مطلية أطرافها بالذهب ، تحترق مائة شمعة ، تتبع عائشة ظل مربيتها ، وتقف ، مثلها ، متعلقة بالحديد المشغول ، تحملق خلال السور ، إلى الضريح ، مئات – بل آلاف الشموع ، تحيط بالقبر المغطى بقماش الشيفون (هل هو شيفون أم نايلون ؟) الوردى فى كشكشات سخية ، متلألئة بالترتر ، تتمتم مربيتها بتحيات مطولة ، فتدرك عائشة أن هذه هى الست حبيبة ، زوجة سيدى أبو السعود . لايستطيع أحد التقرب إليه إلا عن طريقها ، فلديها المفتاح الوحيد لقلبه ، وإذا سألته أجابها . لايرفض لها طلبا ، تفضى إليها المبتهلة ، تحدثها حديث امرأة لامرأة ، تحاول كسبها إلى صفها لتتوسط لها عند الشيخ : تضحك له ، وتمسح على روحه ، فيفيض قلبه انشراحا ، ويجيب الطلب . تسند عائشة جبهتها إلى السور وتهمس :

– «ياست حبيبة .. أنا ..» .

تتردد .. ترمق مربيتها : عين العجوز مغمضة ، وشفتاها تتمتمان بآيات من القرآن ، ماذا تقول ؟

– «ست حبيبة» .

تذكرها كرانيش الضريح بزينة فراش العرس ، وأغطيته . تتطلع إلى الحائط . هل سترى لوحة المرأة شبه العارية التى تزين كثيرا مما رأته من غرف نوم القاهرة . ست حبيبة . زوجة من الطبقة المتوسطة ، ترقد باردة ، متأدبة ، فى عشها النايلون الوردى ، تحت عين العاهرة .

المعلقة على الحائط ؟ وإذا كانت «تحمل مفتاح قلب زوجها» - ولكن - إذا كانت «تبتسم له من وراء مشربيتها فتسعد روحه ، وتطمئن قلبه » - فلابد أنها تعرف أسرار فراشه.. لابد إنها تستقبل لمساته بدفء وليونة. لابد أنها تلف جسدها حوله حين يأتيها في الظلام، ترحب به، و - زيف . ربما تصنعت. يشير اليها اصبع الاتهام الصارم، يسألها: هل تصنعت اللذة يوما؟

تداعبه وتبتسم له. تستسلم لرجولته.. ذكورته.. فحولته، تتقن فنون الغنج، وتتصنع اللهفة والشوق، حتى تصير الحاكم من خلف كرسى العرش، والمؤتمن الوحيد على مفتاح قلبه - كفى ، كفى ، يا عائشة. لن يجدى هذا ابدا.

صلى ، ادعى ، تحدثى إليها . هذا ما اتيت من اجله، تحدثى إليها الآن.

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم»..

أجل ، هذه خير بداية، الفاتحة .. وسيلى ذلك الإلهام.

«اهدنا الصراط المستقيم . صراط الذين انعمت عليهم، غير المغضوب عليهم، ولا الضالين آمين . ست حبيبة : أنا جيت اطلب منك طلب. انا.. أنا مابقتش أحب جوزى.

لم تقصد . لم تقصد ابدا ان تقول هذا . ابدا. تقبض على قضبان السور:

- «أنا عايزة طفل، ومش عارفة اعمل إيه، يمكن غلط إنى افضل.. بس هو كويس.. بيحبنى جدا.. كلهم بيقولوا كده.. وانا كنت باحبه.. اظن انى كنت باحبه.. بس دلوقتى مش باحب - مش باطيق - مش بابقى عايزة ابدا - بس عايزة يبقى عندى اولاد.. ست حبيبة: مافيش حد اقدر اتكلم معاه، حتى دادتى، كلهم بيقولوا لازم تجيبى عيل علشان حالتك النفسية تتحسن حتى الدكتور بيقول كده .. وأنا - أنا مش عارفة اعمل إيه.. » .

كان الحديد - الذى تضغط عليه بجبهتها - باردا ناعما وكانت تنشج بالبكاء.

تطوفان بمقام الشيخ أبى السعود سبع مرات، وتقرآن آيات من القرآن الكريم، تطلبان له الرحمة، ثم تستغرقان في تأملاتهما بجانب قضبان الضريح الحديدية الرصينة. لا تستطيع عائشة حمل نفسها على البوح للشيخ كما باحت لزوجته.. لا يبدو ذلك لائقا ستعتمد على السيدة حبيبة في ايصال مطلبها.. تبتسم لنفسها وهى تقف عند ضريح الولى المحبوب، وحولها عدد من السيدات الريفيات. الموقف بالنسبة لهن مألوف معتاد، لهن دربة على صيغ الحديث، ولايعانين من الوعى الزائد بالنفس.. عندهن اليقين.. فلا تأتيهن الخواطر السطحية السخيفة الساخرة.

تتحرك زينة في وقفتها استعدادا للرحيل، ويصيب عائشة ذعر مفاجيء: بعد كل هذا، سترحل دون ان تذكر مشكلتها للشيخ؟ ماذا لو نسيت زوجته؟ أمعقول هذا الكلام؟ هى تعرف؟ - تعرف انه ليس معقولا ولكن، مهما كان - ما الضرر يعنى - ومن يدرى - تهمس فى عجل خلال السور:

- سيدى ابو السعود: حادبح لك خروف لو حليت مشكلتى.

تشعر ببعض الحرج من نكهة الرشوة الملتصقة بعرضها، فتعود توضح :

- للغلابة يعنى حندبحه باسمك ونأكله للفقراء.

تقف لحظة ممسكة بالقضبان، ثم تضيف:

- وحاولع مائة شمعة لست حبيبة.

لابد أن ذلك سيسعده تتحرك زينة على مهل تجاه الباب، فى حين تهمس عائشة همسة اخيرة راجية :

- بس والنبى، والنبى والنبى تساعدنى.

تترك حديد السور وتسرع وراء مربيتها فتتأبط ذراعها.

وما الضرر على اى حال؟ ليس إلا لعبة كالألعاب التى اعتادتها:

«يجب ان أصل الى التليفون قبل الرنة الثالثة»، و«لابد ان اكون داخل الشقة قبل انطفاء نور السلم».. و «على أن اخطو على البلاطات فقط ولا ألمس الشقوق بينها» وإلا وإلا وإلا - خطر غير محدد يحدق بها دائما - وهى لم تحدد طلبها بالضبط ، بل تركته مبهما، فلتدعهما يقرران الحل المناسب لمشكلتها، الشيخ وزوجته ، فهما احكم منها - وبالتأكيد اكبر سنا، فليقررا..

على باب المسجد كان الجزار ينتظر.

لم تكن قد لاحظت الندبة على خده الأيسر، تمتد مائلة من منبت شعر الرأس إلى زواية الفم، فى خط رفيع، لونه بني داكن، تسايره نقاط صغيرة خلفتها الخياطة. ابتسم متسائلا:

– قريتى الفاتحة؟

كان السؤال موجها لها، ولكن زينة تطوعت بالإجابة:

– «أمال للشيخ وللست حبيبة»..

يتوسط المرأتين ويقودهما خارج ساحة المسجد. ثم الى اسفل منحدر التل.. يقول لعائشة:

– لو بتحبى الحاجات دى انا اقدر اوديكى حضرات احسن من دى بكتير.

تسأله:

– يعنى إيه «أحسن»؟

– انضف .. ارقى.. فى شقق وبيوت ، حاجات على مستوى . الستات اللى بتحضر هناك ، كلها هوانم، لابسين فرو وألماظ.. أليق لك يعنى.

– ليه؟

– ليه إيه؟

– ليه أليق لى؟

أخذ بالسؤال.

– يعنى - الستات دى كلها فلاحين.

– ومالهم الفلاحين؟

فكر قليلاً ، واستمرت هى :

– أنا انبسطت قوى هنا النهارده. حبيت المزيكة - وكل حاجة.

– بس مافقرتيش.

– عرفت منين؟

– عرفت

تهز عائشة كتفيها، فيسأل :

– خفتى؟

– طبعا لا .. حاخاف من إيه؟

جاء دوره ليهز كتفيه.

– «قدموا بقى. شهلوا حبة، احنا اتأخرنا» - لم تستطع زينة سماع الحديث الذى دار بين الاثنين بصوت خفيض، فتذمرت سأل:

– حتروحوا إزاى؟ وأدرك الاجابة عندما تباطأت عائشة فى الرد.

– معاكى عربية؟

أومأت.

– بتسوقى؟

أومأت مرة أخرى خفض صوته قليلا وقال:

– لو بتحبى الحضرات، وتحبى تتفرجى على الناس، يبقى لازم تيجى مولد سيدى على يوم السبت.

– تنيدى على؟

– سيدى على زين العابدين، ابن سيدنا الحسين.

– ما سمعتش عنه قبل كده.

– ده الولى بتاع حتتنا – حى المدبح. سمعتى عن المدبح؟

– حى خطير.

انا حاخد بالى منك، ماحدش بقدر يكلمك دى.. حتتى.

– والمولد يوم السبت؟

هو كل يوم سبت فيه زى احتفال كده صغير، بس السبت الجاى المولد، المولد الكبير. حيعجبك.. حتتفرجى وتنبسطى. قلتى إيه؟

– حاعرف السكة ازاى؟

يصلون الآن الى السيارة.

– أركب معاكى واوريكى.

تفتح عائشة باب السيارة، ثم تميل لتفتح الباب الخلفى قائلة:

– معلهش يادادة تقعدى ورا حبة؟ فرج حيورينا السكة للمدبح.

تقول زينة معترضة :

– واحنا عايزين المدبح نعمل به ايه؟ حنشوفه ليه يعنى؟

تدفعها عائشة برفق الى المقعد الخلفى ثم تغلق الباب عليها قائلة:

– أنا ماشفتهوش.

صاحت العجوز:

– طب مانت فيه حاجات ماشفتيهاش ياما يعني لازم تشوفي كل حاجة؟ هو العمر فيه كام يوم؟

اتخذت عائشة مكانها امام عجلة القيادة، فى حين جلس الجزار بجانبها ممدا ساقيه المكسوتين بالجلد، قال.. وهو يربت على المقعد الجلدى:

– عربية واسعة رحبة . سألته :

– أمشى ازاى؟

زينة تحادث الشباك :

– طول عمرها راسها ناشفة، لما تطلع فى مخها حاجة ـ ولا حد يقدر يقف فى سكتها.

عائشة لا ترد عليها، فهى تتابع تعليمات فرج، حتى خرجت بالسيارة من الشارع الضيق الموحل الى أرض ترابية كبيرة متسعة .قال:

– وصلنا . السور اللى على اليمين ده، سور المدبح نفسه، والمبنى اللى جنبه ده قسم البوليس. وهناك.. يشير الى الجهة المقابلة : «شايفه الحارة اللى هناك دى؟ تمشى فيها توصلى فسحاية فيها قهوة.. أهو الاحتفال حيكون هناك. بس ماتحاوليش تخشى بالعربية سيبيها جنب القسم ـ فى الأمان. إن ماشفتينيش على طول اسألى أى حد. بس انا حاستناكى ـ يستدير ليفتح باب السيارة، ثم ينتظر حتى ينتهى قطيع الجمال المار بجانبهم. تسأله عائشة فى قلق:

– دول رايحين يتدبحوا؟

تنفجر مربيتها فى المقعد الخلفى:

– لأ، رايحين رحلة، أنا اللى حاندبح إذا اتأخرنا عن كده. جوزك زمانه روح من بدرى.. حنقول له إيه بس؟

أدار فرج رأسه يرقب عائشة تواجه عائشة نظرته . لم ترتكب خطأ.

لم تكن هناك مناسبة من قبل- لذكر زوجها.

تفتح زينة الباب وتنزل بتثاقل، بينما يتهادى آخر الجمال متجاوزا السيارة. تفتح الباب المجاور لفرج قائلة:

– مع السلامة كتر خيرك على المساعدة، احنا حنروح دلوقت ، والست ماعادتش جايه هنا تاني.

لم يرفع عينيه عن عائشة وهو يقول:

– حاستناكي..

غادر السيارة، ووقف لحظة، ثم مشى، يتبع آخر الجمال الى داخل المدبح.

السبت :

وعدنا للايام الخوالي.

تقود عائشة سيارتها بامتداد الكورنيش المظلم، ويمتد النيل الى جانبها متسعا ومعتما، تنعكس على وجهه الاضواء المتماوجة، طلبت من ميمى ان تصحبها ولكن ميمى اعتذرت ، كما اعتذرت صديقتان اخريان، فقررت عائشة ان تذهب بمفردها ، لم تصطحب مربيتها ، لأنها ، للحق ، لاتريدها فقد شعرت لأيام بعدم رضى دادة زينة عن مشروعها.. كانت ستتململ الليلة وتتجهم وترى خطارا وسفاكي دماء.. وتصر على العودة الى البيت مبكرا.. لم تسترح زينة لفرج.. بعد ان عبر بهما الزحام، كان من الواضح ان دوره انتهى فى عينيها، أو انه تبدل: فلم تعد تراه شهما خاميا، بل رأته متطفلا، انتهازيا، يغتنم توصيلة فى سيارة فاخرة.. ويحاول غواية ربيبتها ، قالت زينة لعائشة لما اصبحتا وحدهما بالسيارة :

– خللي بالك.. ده مش زى الرجالة اللى انت تعرفيهم مش زى الاجانب ولا زمايلك فى الجامعة ولا الاولاد فى النـادى ، إنت ماتعرفيش الصنف ده ، ده جزار وانا عارفة مخه ماشي إزاى . لاقيكى بتحضرى حضرة، وتخليه يزورك الشيخ، ويركب معاكى العربية، وتواعديه على يوم السبت ـ لازم حيفكر فى حاجة..

ضحكت عائشة قائلة:

– أنا مش فاهمة انت بتفكرى ازاى . انا عملت ايه عشان «يفكر فى حاجة» ؟ ثم إنه كان مهذب ولطيف وكمان كانت حنته، وإذا كان انبسط من إنه خلّى باله مننا وركب معانا ـ فيها إيه يعني؟ مش معقول حيفكر فى حاجة..

– إنت فاهمة يعنى عشان بنت ناس وهو جزار مش حيستجرى يفكر فيكى؟ غلطانة.. هو شايف نفسه معلم، بيكسب بالألوفات، حيقول لروحه الراجل مايعيبه إلا جيبه وكمان انا شاب وشكلى كويس والف من تتمنانى، ودى باين عليها مبسوطة من التراب والفلاحين والسلخانة ـ حيقول لروحه وماله؟ فيها إيه يعنى؟

اعترضت عائشة:

– انت دايما خايفة من كل حاجة، على طول مستنية المصايب. طيب اديكى عرفتيه إن انا متجوزة، خايفة من إيه بقى؟ أظن خلاص مش ممكن حيفكر فى حاجة؟

زمت مربيتها شفتيها قائلة:

– انت مش فاهمة اى حاجة.. وربنا انك ماتعرفى حاجة .

ثم لزمت الصمت بقية الطريق..

يذكرني اليوم بالماضي، حين كانت تهرب من والديها، لتذهب مع الصديقات الى مرقص او حفلة، كانت نزهات بريئة كهذه النزهة تماما، والحق انه لم يكن هناك داع للسرية - لكنها كانت تعلم انهما سيمنعانها. الفرق هذه المرة، وتلك المرات هو عدم رضا مربيتها ولكن مربيتها لم تكن أبدا راضية. كانت تتستر عليها، ولكنها لم تكن راضية، لن تخبر احدا، وهذا مايهم.. وإن اخبرت؟ احسن.. لندع الامور تتضح وتبلغ منتهاها. دعهم يعرفون جميعا انها ستفعل مايروق لها، وانه لاضرر منه، دعهم يدركون أن في الدنيا طرقا اخرى للعيش غير الطريقة التى اختاروها، وليدركوا قلقها وعدم استقرارها في الطريق الذى خططوه لها. ليس الامر انها تود الذهاب إلى الحضرات والمراقص في كل يوم من أيام حياتها، ولكنها تريد ان يدركوا وجود أناس.. آلاف.. وربما ملايين يتحدثون مع الجن بألفة اكبر مما تجد مع زوجها . يعملون ، ويعانون ويدخرون ثم ينفقون عرقهم ، راضين ، على اسعاد الاسياد واستمالتهم ، سيقولون : ثم ماذا؟ هذه ظاهرة معروفة. اقرأى اى كتاب فى الانثروبولوجيا الاجتماعية - ستجدينهم فيه: أناس بدائيون يلجأون الى الخرافيات لتفسير العالم، فما الجديد؟ ستتحداهم قائلة: وماذا عن الفتاة التى افاقت من ذهولها؟ سيبتسم والدها فى لطف، ويبدو الضجر على وجه زوجها ستقول: لا اختلق لقد حدث ذلك بالفعل، لم اسمع به، لم يحك لى احد بل رأيته، رأيته بعينى ستطلع امها بنادرة ادبية - من ادب اجنبى : كاثى تنقر على زجاج نافذة هيثكليف وقد يذكر ابوها شيئا عن الابحاث العلمية فى التنويم المغناطيسى والايحاء.. فى حين يضحك زوجها قائلا : مررنا بتجربة ميتافيزيقية منذ ايام قلائل. أليس الوقت مبكرا لواحدة جديدة؟ وإذا كان مزاجه معتدلا سيربت على رأسها .. يكون احيانا لطيفا جدا، وذكيا، وصاحب نكتة. ودت من قلبها ان يشاركها مغامرتها.

ذكرت له زيارتها لسيدى ابى السعود ، وانتظرت منه ان يسألها ، يسائلها ، يحاورها ـ ولكنه لم يفعل ، لذلك لم يكن من الصعب أن تقرر الذهاب ـ دون علمه ـ إلى مولد سيدى على زين العابدين.

أحسست بها قريبة جداً اثناء رحلة السيارة، اقتربت واقتربت منى.

سعدت لانها اتت بمفردها، وكأنها شعرت بضرورة ان نكون وحدنا، أحسست أنها بدأت تتعلم ، بدأت تتحرك نحوى ، واكتفيت وقتها بالانتظار راقبتها.

اصاب زوجها حين اشتكى من أنها شخصية مسرحية، فقد احبت دائما ان تدخل في الدور. تأملت ثوبها الاسود الذى يصل الى ما تحت الركبة بعدة سنتيمترات محتشمة، وسترتها الناعمة التى ارتدتها وقاية من برودة الليل، والجوارب الحريرية والحذاء ذى الكعب العالى. وتلك الليلة عادت دبلة الزواج الى اصبعها.

تركن عائشة السيارة فى حرص بجوار قسم البوليس، تغلقها وتسك ابوابها ثم تربت عليها حانية وتهمس :

– مش حاتأخر عليكى.

تسير عدة خطوات ثم تلقى نظرة خلفها، تبدو الآلة اللامعة الملساء بائسة وسط عربات الكارو والجمال الباركة واكوام التبن والقمامة فتغمغم مرة اخرى :

– مش حاتأخر.

تبدأ عبور الساحة، ويترك حذاؤها حفرا صغيرة فى الارض. الارض مبتلة رغم ان الدنيا لم تمطر منذ فترة طويلة، تمر ببالوعات، وتستنشق رائحتها مختلطة بروائح السلخانة والمدابغ . تساءلت إن كان قاطنو المنطقة يبالون، إن كانوا يستاءون، لعل ثوبها ملائم ولا تجذب كثيرا من الانتباه

قطبت يكفى انها هنا: امرأة بمفردها ـ وفى رداء غربى.. هل كانت تستعير أحد جلابيب مربيتها الطويلة السوداء؟ تكون حماقة بالتأكيد وكانت ستضطر للتغيير فى الجراج.. كلا لاشك انها فعلت الصواب لايمكن ان يعترض احد على ثوب اسود بسيط.

تسير محاذرة موطىء قدميها ، وتتجنب المناطق الموحلة، وتبتعد عن طريق الجمال والجاموس والخراف والماعز والجياد والبغال والحمير وكلب ضال.. تتناهي الى مسامعها انغام المزامير وقرع الطبول . تصل الى اول الحارة، فتنخرط فى زحام كثيف متهدج، تدرك انه لا فائدة من المقاومة. فتستسلم، وتدع التيار البشرى يحملها الى ذلك القلب الحى الذى يجتذب اليه كل هؤلاء الناس. يتحرك الحشد ببطء خلال الحارة وبمرور الدقائق تضعف رائحة الذبائح والمجارى ، وتملأ الانف رائحة بخور المسك والعنبر.

تبلغ عائشة نهاية الحارة، لتقف على اعتاب ميدان تستنتج أنه مركز الاحتفال الرئيسى. لاترى شيئا من موقعها سوى سرادق كبير عال يغطى رقعة الارض كلها، ويتدلي من سقفه عدد من الثريات الضخمة. تصم دقات الطبول الآذان، يصاحبها صوت مئات الرجال فى ترانيم الذكر، وفى الخلفية تأتى انغام المزامير، توقف الحشد عن الحركة فتساءلت فى نفسها عما يجب أن تفعل ـ تجرب «لو سمحت» ، وتلمس ذراع الرجل الواقف امامها فلا يتحرك هى مزنوقة الآن بين سيدتين فى ملايات لف تديران محادثة عالية عبرها، تشرئب لتنظر امامها: كتلة متلاحمة من البشر على امتداد البصر. لا تستطيع العودة او حتى الاستدارة.

تقبض يد على ذراعها . تلتفت لترى فرج الجزار يبتسم لها قائلا:

– اتأخرتى. قلت دى مش جايه..

تبادله الابتسام. سيكون كل شىء على مايرام الآن، فهذه منطقته وهو يعرف ماذا يفعل، سيعتنى بها . يقول لها :

- حجزت لك مكان.. تعالى

ظل ممسكا بذراعها ويقودها فاتحا ممرا لهما خلال الزحام. تتعجب كيف يفعل ذلك؟ فهو لايبذل مجهودا على الاطلاق، يتقدم فقط، فيتركه الحشد يعبر من خلاله يصطحبها معه، وينغلق الزحام من خلفهما مرة أخرى.

وصلا الى فناء مفروش بالسجاد، تقف عليه صفوف من رجال يذكرون. يجلس العازفون بطرف الفناء على منصة خشبية مرتفعة: رجال يحملون الطبول والدفوف والنايات والمزامير، تحيط بالراقصين دائرة واحدة من الكراسى الخشبية، ومن خلفها وبكل مكان: الزحام.. الزحام يمتد إلى حافة الساحة، ثم يغيب فى الأزقة المتفرعة منها، قد يتموج فيكتسح احد الكراسى، فيفقد الجالس عليه توازنه، ولكنه سرعان ما يتمالك نفسه فيدفع الزحام الى الخلف بمرفقيه، ويستوى فى مجلسه، ويعود الزحام فيستقر الى حين. ترى عائشة دكة خشبية مفروشة بكليم صوفى ملون و- ياللعجب- خالية. يصلان اليها فيقودها فرج قائلا وبصوته نبرة تفاخر:

- مكانك أهه - حجزته لك من بدرى.

تفكر للحظة فى البراغيث، ثم تزجر نفسها، وترد عليه:

- متشكرة جدا.

تجلس وتتذكر فى الوقت المناسب أن النساء هناك لا يضعن ساقا فوق ساق. ضمت ساقيها ومالت بهما بأدب الى جنب، وساوت ثوبها ليغطى ركبتيها. وضعت حقيبة يدها على حجرها، وألقت بيدها عليها، ثم راحت تتفرج حولها.

دخان السجائر والبخور يكون سحابة زرقاء فى الجو، يستريح عازفو الناى والمزمار، بينما تزداد حماسة قارعى الطبول وبالتالى الراقصين:

رجال في جلابيب بيضاء وعمامات، وفلاحون في جلابيب صوفية وطواقي، وعساكر في الكاكي، ورجال في سراويل رمادية وقمصان بيضاء. رجال طوال ورجال قصار، شباب ، وكبار، رجال نحفاء، ورجال سمان، البعض ملتح، والبعض بشوارب، البعض حليق، والبعض اصلع، كل يضع حذاءه بجانب قدميه الثابتتين ويطوح نصفه العلوي، اعينهم مغمضة، وجباههم تتصبب عرقا، يصيحون بحياته تعالى مع كل اربع دقات من الطبول.

وحين ينهى قارعو الطبول دقاتهم يسود صمت مفاجيء يتربع الرجال على السجاد، ويمسحون عرقهم في انتظار البدء من جديد.

يميل فرج عليها قائلا:

– ده غير تفقير الحريم، الرجالة مابتطورش.

تقول عائشة:

– متهيألي الستات بتنبسط اكتر.. مش حتنزل الحلقة؟

يخبط على فخذ بنطلونه الجلدي الاسود قائلا:

– مايصحش انزل بلبس المدبح، كنت عاوز ألبس لك جلابية حرير بيضاء، بس ما لحقتش. خفت توصلي بدري، اتشطفت بس وجيت على طول..

ترد عائشة :

– أنا آسفة.. بوظت عليك الليلة؟

يبتسم قائلا:

– إزاي؟ ده انت منورة . وبعدين الحلقة دي خفيفة علي.

يستأنف العازفون مرة اخرى، نوع الموسيقى مختلف الآن، ينخفض صوت الطبول ليتوارى في الخلفية، ويحتل خشبة المسرح عازف الرباب.

يمر بالقوس على الآلة ، ويسعل في الميكروفون ثم يبدأ في مدح سيدى على زين العابدين.

تلتفت عائشة الى مضيفها متسائلة:

– فين جامع سيدى على؟

يشير قائلا:

– هناك .. شايفة الحيطة دى؟ والشباك العالى؟ المدنى بتاعته تتشاف من سيدى ابو السعود.

تغمغم :

– ما اخدتش بالى.

عازف الرباب يتغنى بنسب سيدى على . تتفحص الزحام. يشغل المقاعد رجال فقط ـ لا ، هناك امرأة واحدة جالسة بالاضافة اليها . ترتدى جلبابا رجاليا وتضع ساقا فوق ساق . تلبس جوربا رجاليا سميكا اسود، وخفا ذهبى اللون، رأسها معمم بشال لاميه ذهبى تتدلى اطرافه على جبهتها ـ عيناها محددتان بكحل ثقيل. وهى تدخن . استدارت المرأة، فحولت عائشة نظرها فى الحال . يبدو بقية الرجال من علية القوم: كبراء البلاد، وجدود وآباء محترمون ، جلابيبهم من الحرير او الصوف، نظيفة ومكوية جيدا .. تغطى رءوسهم العمائم البيضاء المنشية، احذيتهم لامعة، وبأيديهم التى تقبض على العصى الغليظة، خواتم ذهبية . تمر بينهم علبة نشوق فضية . كان يمكن ان يكون اى واحد منهم جدها .

– اللى واخد عقلك.

تلتفت الى فرج يلف سيجارة تدرك ان بها حشيشا . يقرأ نظراتها فيسألها:

- عايزة؟

- يعنى .

- الستات هنا مابتدخنش.

تشير ناحية المرأة الغريبة قائلة:

- طب ودي؟

- دى حاجة تانية.. دى معلمة . تعمل اللى يعجبها.

- يعنى ايه معلمة؟ معلمة ازاى يعنى؟

- معلمة . بتشغل فلوسها وتعمل اللى هى عايزاه.. عمرها ماخلت لراجل سلطان عليها، حتى لو اجوزت تخلى العصمة فى ايدها. قوية . شفتها بتضرب رجالة - رجالة بشنبات . ماحدش يقدر يقف قدامها.

تمد عائشة يدها، فيقول محذرا :

- بلاش..

تصر قائلة :

- ماحدش حياخد باله..

ثم تتناول اللفافة. هو فعلا تهور ولكن أيعرفها احد من الموجودين هنا؟ أيمكن ان يهب الخلق فيمزقونها إربا إربا لمجرد أنها سحبت نفسا من سيجارة ؟ ومتى تتاح لها مثل هذه الفرصة مرة اخرى؟ تسحب نفسا وتحتفظ به لبرهة ثم تخرجه. تفضل أن تموت على ان تسعل.. تشعر بالتهاب فى حلقها وعينيها.. وبتنميل فى ركبتيها، ويتمدد داخل رأسها، ويتصاعد داخلها الشعور بالغثيان، تتشبث بحقيبة يدها، سمعت الكثير عن الحشيش، ولكن لم تتح لها فرصة تجربته من قبل حتى عندما يمرر أقران زوجها لفافة فيما بينهم، لا تملك إلا مشاركتهم فى تمريرها فقط، دون ان

تنوقها. يعد الامر بالنسبة لهم جرأة وبوهيمية، اما بالنسبة لها فلا : المطلوب منها ان تبتعد عن مثل الامور، وتكتفى منها بموقف المتفرج . لم تقنع بذلك ابدا، تافت الى التجربة، وهاقد جربت.. الآن.. تأخذ نفسا آخر، فيطغى عليها الشعور بالغثيان.. تعيد اليه اللفافة وهى تفكر فى أسف: لم يتح لى الوقت الكافى . فالوقت قصير. واعصابى مشدودة كم اود ان ادخن واحدة ببطء مع صديقاتى . اجذب انفاسا صغيرة ثم اخرجها حتى تعتاد معدتى الامر، فأستطيع الاستمتاع بتمدد الرأس، ورؤية الى اين يقودنى ذلك، أما هكذا فلن ينفع.

ينظر فرج الى يدها اليسرى التى تضعها فوق اليد الاخرى على حقيبة يدها.. إلى دبلة زواجها وبجرأة مبعثها النفسين اللذين اخذتهما من لفافته، تشاغله :

– كنت خايفة إنى ألفت النظر هنا، يعنى علشان لوحدى.

– مانتيش لوحدك، وما حدش واخد باله من حد.. ده مولد، بيجيله ناس من كل صنف : مريدين.. مجانين.. اغنيا.. قضاه.. عساكر.. أتباع سيدى على .. ده فيه لواء مشهور فى الجيش ، بييجى كل سنة ، ينصب خيمة ، ويملاها أكل ، ويلبس خيش ، ويوكل الغلابة بإيديه ، دلوقتى نروح ورا الميدان وأوريكى.

يدوى خلفهما صوت بوق ، فيستديران . حصان أسود ضخم يشق طريقه متبخترا وسط الزحام ، يمتطى صهوته رجل يحمل بوقا طويلا وعلما أسود . شعر الحصان مزين بالشرائط الملونة ، وسرجه مزدان بحلى نحاسية صغيرة . يشخر الحصان ، والراكب يمنعه من دخول الحلقة . تهمس :

– إيه ده ؟ مين ده ؟

يجيب :

- ده موكب الطرق ودى بيارقهم .

تجمع الموكب خلف قائده ، وتفرق الزحام. يتخايل الحصان الأسود فى طريقه: رقبته مقوسة متعالية .. أنفه متسع .. عيناه تدوزان فى مقلتيهما . إذا أرخى الخيال لجامه لحظة ، فمن المؤكد أنه سيرمح غير آبه بشىء ، وهو الآن يرقص برشاقة حول الحلقة يتبعه موكب الخيالة الطويل على جياد سوداء يرتدون الملابس السوداء ، ويحملون الرايات السوداء . العمائم على الرأس فقط بيضاء . تلمع أعينهم وهم يقودون مطيهم بطول الشريط الرفيع الذى يفصل الأرض المفروشة بالسجاد عن المقاعد . تظل عائشة جالسة ، ويمر أمامها الحصان تلو الحصان ، وفى مجلسها هذا لا تكاد رأسها تصل لمستوى بطونهم ، وتحتك ساق حصان بساقها من حين لآخر . يصل إلى أنفها خليط من رائحة الحيوان ، والعرق ، المجارى التى ضعفت رائحتها ولكنها موجودة ، رائحة الدم والمدبح ، ويغلف كل هذا رائحة البخور الحلوة . ترتفع الحرارة داخل السرادق ، فأجساد الخيول تطلق صهدا ، وكذلك الزحام والموسيقيون والذاكرون . يذكر الراوى محاسن سيدى على، ويبدو الولى من كلامه فتوة ومعلما أكثر منه شيخا . تزدادالحرارة ، وتزداد .. ويمر الآن الحصان الأخير .

يقول فرج :

- نقوم ؟ .

أومأت واستدارت إليه وهى تنهض . هى مضطربة .. قلقة .. ضعيفة - ينظر إليها ويقول :

- تاكلى حاجة ؟ فيه كباب - فيه كل حاجة .

- لا . لا ، شكرا .

– لونك راح .

– أبدا . مافيش حاجة . حتعدى .

– طب نطلع فى الهوا .

يقبض على ذراعها مرة أخرى ، ويقودها خلال الزحام . يهمس لفتى قريب ، فيتحرك ويشغل دكتهما . يلتفت لها ويبتسم مستحثا :

– عايز اطلعك من الزحمة دى .

تبعته . يقودها من ذراعها ، وتبقى عينيها على الأرض ، فلا ترى إلا ساقى سرواله الجلدى والحذاء الطويل يخطو خطوات واثقة فى الوحل . يتجاوزان الزحام فجأة ، وتشعر بالهواء باردا ومنعشا ، به بقايا طفيفة من اثر الروائح المختلفة . تحدس أنهما خرجا من الجانب البعيد عن السلخانة .

الظلام دامس ، ولكنها استطاعت تمييز منازل على جانب الحارة يتوقف أمام أحدها قائلا :

– بيتنا .

خلال فرجة صغيرة بالباب ترى عدة درجات متعرجة ، ومصباح كيروسين يضىء المكان . يشير إلى الجانب المقابل من الحارة قائلاً :

– وده مدفن والدتى .

تلتفت متسائلة :

– هنا ؟

ترى سياجا من حديد ، وتميز خلفه قبرا أبيض . ترى بابا فى السياج فتحاول فتحه ، ولكنه يقول :

– مسكوك .

تابعا السير . تحول الطريق إلى تشكيلات من الحفر فوضع يده على ظهرهاحتى يمنعها من التعثر . ثم توقف ووضع يده فى جيبه ، فتوقفت هى وسألته :

– مش بيصعب عليك الحيوان لما تيجى تقتله ؟ .

يجيب مندهشا ، ويده لا تزال في جيبه :

– لأ . هو انا باقتله ؟ أنا بادبحه .

– ما بيحاولوش يهربوا ؟ .

– لأ . الحيوان لا مؤاخذة بيحس . بيعرف يعنى ان مافيش فايدة . مرات البهيمة تحرن ، ونقعد نجر فيها – بس العادى يعنى بييجوا مع الواحد . بس انت مالك ومال الحاجات دى ؟

يبتسم : اتفضلى .

يمد يده بقطعة حلوى قائلاً :

– حاجة حلوة . حلّى بقك .

تتناول عائشة قطعة الحلوى من يده . ينظر إليها وهى تفتحها وتضعها فى فمها . طعم الربسوس . سنوات .. مضت سنوات لم تذكر الربسوس .. منذ المدرسة . تبتسم قائلة :

– نكمل ؟

يعاود إمساك ذراعها بإحدى يديه ، ويضع الأخرى على ظهرها . تقول :

– يمكن أحسن نرجع .

يقودها قائلا :

– مش عايزة تتفرجى ؟ تقريبا وصلنا .

ترى الآن وسعاية محاطة بنفس المنازل الصغيرة أنعارية من الطلاء والتى تلتصق ببعضها البعض . أما فى الوسط ، فكانت القبور . قبور كبيرة وقبور صغيرة – وتبدو متعددة الألوان . تسأل :

– ترب ؟

يجيب:

– ترب .

– ملونة ؟

– أصفر ، وأزرق ، وأخضر ، الأبيض عايز صيانة ، بيتوسخ بسرعة .

تقترب أكثر . ترى حبال الغسيل ممتدة بين كل قبر وآخر ، تتدلى منها ملابس الأطفال . تستقر فوق أحد القبور صينية صفيح مستديرة ، عليها ثلاثة اكواب بها بقايا الشاى ، وبراد صغير . وهناك ، فى حمى قبر صغير ، ينام رجل . لم تزر فى حياتها سوى قبور عائلتها . مشوار طويل ، تقوم به الأسرة فى المناسبات . الطلوع إلى المدافن . مشوار طويل يباعد بين الأحياء والأموات – وكأن المسافة طويلة بين الحالين . أما هنا ، فيجتمع الاثنان ، يتشاركان ، يتلاصقان . تستدير باحثة عن معلمها . خلال يومين فقط – يا لكثرة ما تعلمت .

هل كان يجب أن أعرف وقتها ؟ كانت العلامات تنتظر من يقرؤها الآن عندما أستعيد ما حدث ، يخيل إلى أنها أحست بشىء . أدركت ذلك فى اللحظة التى اقترحت فيها العودة . أدركت أنها بدأت تشعر بعدم الارتياح ، ولكنى عزيت ذلك إلى رغبة أخيرة فى التراجع أو حتى الخوف العادى حبيبتى المسكينة الغالية .

يمشيان تجاه جانب من الأرض الواسعة ، وهناك ، خارج مقهى صغير مضاء إضاءه خافتة ، تجلس امرأة ، ويرقد فى حجرها قط . بدت الأرض حولها وكأنها تموج . تقترب عائشة وتنظر .. تموج الأرض بالقطط . عشرات .. ربما مئات

القطط تتحرك بهدوء ، تعبر بعضها بعضا ... قطط فوق قطط .. قطط تحت قطط .. يتمسحون بالكرسي .. ويساقي المرأة . في مسامع عائشة مواء جماعي عميق . تلتفت إليه قائلة :

– دول كلهم بتوعها ؟

يغمغم :

– مجنونة ، عاملاهم أهلها . بتتحكم في قطط الحتة كلها . تنقى دكر وبتايه ، وتجوزهم . ولو واحد منهم بص برة تشتمه وتضربه .

تقف عائشة محدقة في الظلام : تهمس المرأة للقطط بلا انقطاع ، تلتقطها وتمسح عليها وتنظر في عيونها ، ثم تضعها على الأرض من جديد . تتوسد القطط قدميها .. موجه وراء موجة ، كل يحاول الاقتراب أكثر .

يقول :

– ياللا .

يلتف ذراعه الآن حول وسطها . تحاول بلطف أن تفلت منه ، ولكنه ، وبرقة ، يشدد قبضته عليها . يستمر في السير ، ثم يقول :

– ما قلتيش من الأول ليه إنك مجوزة ؟

– آني أول ؟

–من الأول

– ما كانش فيه أول . ماجاتش مناسبة.

يلزم الصمت ، ويواصلان السير ، ثم يسأل :

– وجوزك فين الليلة ؟

– عازم ناس .. تبع الشغل .. بره .

– وبيشتغل إيه بقى ؟ دكتور والا مهندس ؟

– فى السلك الديبلوماسى .

– والنبى جد ؟ .

– أيوه .

– وعارف إنك هنا ؟

ترددت :

– مايعرفش ؟

– بتسأل ليه ؟ .

– باسأل .

– طب ويهمك فى إيه ؟

– باسأل .

– مش عايزة اتكلم عنه .

– اشمعنى ؟

– أهه ، مش عايزة .

– ليه يعنى ؟ عشان انت هانم وهو بيه ، دبلوماسى .. وأنا ..

– أرجوك ، من فضلك ، ما فيش داعى للكلام بالطريقة دى ..

– طريقة إيه ؟ إنت اللى بتزعقى ومش عايزة تتفاهمى .

– أنا لازم أمشى .

– تمشى ؟ دلوقتى ؟

– أيوه . دلوقتى .

– ده المولد فى أوله . لسه الحاوى ، والتعابين ، والأكل .

– كفاية عليا كده . لازم أروح .

– ما ينفعش . دانا حاجز لك الكرسى .

– أنا تعبت . ودماغى لفت . ولازم أروح .

تمشى بإصرار رغم جهلها بالاتجاه الصحيح . تبتعد عنه ، وتجتاز المزيد من الحفر والقبور ثم تتعثر فتستند إلى جدار أحد القبور وتعيد لبس حذائها . يقبض على ذراعها قائلا :

– السكة دى ماتوصلش .

– طيب وريني منين ؟

– مش ممكن تمشى دلوقتى . يقولها وهو ممسك بأعلى ذراعيها ، يثبتها إلى جدار الضريح . تنثر رأسها إلى الوراء فيرتطم بالحجر . يسرى الألم فى رأسها وعينيها ، وتصيح :

– لازم أمشى .

يسد فمها بيده قائلا :

– حيبقى شكلى غبى قوى لو رجعت لوحدى .

تعضه فيسحب يده ثم يصفعها فيرتطم رأسها بالحجر مرة أخرى . يقبض على شعرها بيد ، وباليد الأخرى يشق سترتها الصوفية الناعمة . تتنبه إلى أنها لا تزال ممسكة بحقيبة يدها تحت إبطها فتسقطها وتلكمه ثم تغرز أظافرها فى رقبته . يثبت رأسها بجدار القبر ، ويشد شعرها ، حتى تحس بعنقها يكاد ينخلع . ينحنى ليرفع ثوبها ، تحاول أن تركله لكن ركبته تتوسط الآن ساقيها ويده تجذب سوستة سرواله الجلدى ، تسمع صوتها متحشرجا «لأ ، لأ» لكنه يسمى ويدفع ويستقبله

جسـدها . يدفـع ، وتقـاتله ، لكنهـا لا تصـرخ ، بالرغـم من أن يده تركـت فمها من زمن . متآمـران ، تقاتلا فى صـمت ، قتالا مميتـا حتى النهـاية . ثم اندفـن وجهه فى رقبتـها ، وسـواء أغلـقت عينيـها أم فتحتهمـا كان كل ما ترى هـو النجـوم اللامعـة فى السـماء السـوداء ، وصـرخت فهبطـت يده مـرة أخـرى على فمها .

ديســمبر

نهاية العـام ، والبرد مـرير قارص . تلمـع أرض المسـتشفى الخاص الصغـير فى ضـوء النيـون . يلمع الضـوء على الأنابيب الحمراء ، والأقنعة البيضـاء ، والأدوات المعـدنية . وعلى مائـدة العمليات . على مائدة العمليات ، ترقـد عائشـة . لقد جاهـدت ، فقد كان هذا واجبها ، جاهدت من أجل من تحبهم . إلا أنها الآن لا تهتـم كثيرا . لا أحـد يعلـم بعد إن كان الطفـل سوف يعيش .

والآن ، علـى أن أبـدأ ، مـرة أخـرى ، فى الانتظـار . ربما لسنوات . ربمـا أكثـر . لكننى أعلـم أنها سـوف تعـود إلى . فهى دوما ، دومـا تعود . عائشة .

عـــودة

أقبلت سيارة حمراء صغيرة مسرعة ، وانحرفت لتتوقف تحت شجرة أمام المنزل المؤلف من ثلاثة أدوار . لم ينزل منها أحد ، ولم يتوقف المحرك . ثم تحركت السيارة من جديد دارت حول رأس الطريق ورجعت من حيث أتت .

قالت عائشة لنفسها : أنا بحاجة إلى تلك الكتب ، أحتاجها للمادة التى أدرسها . عادت بالسيارة إلى الطريق الرئيسى ثم انحرفت إلى اليمين وسارت حتى الدوار . لفته ، ووصلت إلى ميدان فسيح . متأكدة هى من صحة الطريق الذى سلكته ، ولكنها لا تتعرف على الميدان ، تذكر حديقة خضراء ، ذات أشجار وارفة ، وأحواض للزهور ، وطرقات من الرمل الأحمر ، وبدلا من كل هذا رأت موقع بناء : فى مقدمة الموقع يقوم مسجد من حجر أصفر ، عليه لافتة مكتوب عليها بحروف كبيرة خضراء «جامع رضوان» . تساءلت من يكون رضوان هذا ؟ وما درجة الثراء والنفوذ التى مكنته من الحصول على ترخيص لبناء مسجد فى هذه الحديقة المخصصة للرياضة والترفيه فى وسط البيوت ؟

مشت السيارة الصغيرة ببطء على الجانب الشرقى من الميدان ، حيث يقوم خلف المسجد مشروع بناء آخر . الطوابق التى تم بناؤها كئيبة المنظر ، وما زال يضاف إليها أدوار أخرى . حملت لافتة عبارة «المعهد الإسلامى الأول فى محافظة الجيزة» .

احتل المسجد والمعهد خمسة اسداس الحديقة . نظرت عائشة إلى الشريط المتبقى الأشجار القليلة يعلوها الغبار ، والعشب خفيف ، مصفر اللون . المكان مغطى بحجارة الأسمنت وقضبان الحديد من جميع الاطوال ، واكوام الرمال . ليس هناك أحد. ظهر المكان وكأنه مشروع هدم أكثر منه مشروع بناء. تساءلت عن الضفادع التى كانوا يسمعونها فى الليل، وصراصير الغيط أين ذهبت هل

ارتحلت إلى السدس المتبقى من الحديقة ؟ كيف قسمت الأرض بينها ، وهل تستطيع التعايش بسلام فى هذه البقعة الصغيره المتبقية ؟ ربما لم يحدث ، فتغلب القوى على الضعيف ، وبقى فى الأرض اليوم نوع جديد من الضفادع الخارقة ، وبذلك يكون مؤسسو المسجد والمعهد قد ساهموا فى تطبيق مبدأ البقاء للأصلح .

كان الطريق وعرا ، ممتلئا بالمطبات ، وبدورها امتلأت بعض المطبات بالماء الراكد . تذكرت عائشة يوما مشرقا من أيام الشتاء ، حاولت فيه ركوب دراجة بخارية على طريق معبد أملس ، وفى النهاية اختل توازنها ، فسقطت ، والدراجة فوقها ، أقبل الجميع لمساعدتها ، ولكنها نهضت ، وكررت المحاولة . دار بخلدها أنه لن يحاول ركوب دراجة على هذا الطريق اليوم إلا مجنون .

وصلت إلى مقدمة الساحة . قبل ست سنوات ، كان منزلهم هو الوحيد فى الجهة الشمالية . كان منزلا جميلا نسبيا ، مكونا من خمسة أدوار ، ويطل على الحديقة . اليوم ، تحاصره العمارات المرتفعة ، ويبدو صغيرا بائسا وهو يطل على الطريق المترب ، وكشك السجائر المقام على الرصيف أمامه .

بحثت عائشة حولها عن موقف للسيارة . ليست هناك شجرة واحدة توفر ظلا. وبدا جانبا الطريق متشابهين . انحرفت بالسيارة إلى ما كان الرصيف سابقا ، ونزلت فغاصت قدمها فى الرمل . عبرت الطريق إلى المبنى وهى تحاول إخراج الرمل من حذائها . ومثل الحال فى الماضى ، لمحت رءوسا فضولية فى النوافذ ترصد ما يجرى إلا أن عددا من هذه الرءوس مغطى اليوم بالحجاب ترى هل هن نفس السيدات اللاتى عرفتهن قبل ست سنوات ؟ أم أنهن اختلفن ؟ لعلهن الأخوات الصغيرات أو البنات . من طرف عينها لم تستطع معرفتهن دخلت المبنى بتصميم .

الباب الزجاجى موجود ، وبأعجوبة لم يكسر بعد . الردهة ذات الأرضية الرخامية نظيفة ، لكن الأحواض خالية من أى نبات ، وأعقاب السجائر مغروسة

فى التربة اليابسة . ورجل غريب يكنس الأرض . ألقت عليه السلام ، فرد بجفاء ، وهو متكىء على مكنسته ينتظر أن تمر .

سألته « هل أنت البواب الجديد ؟»

رد باقتضاب «إن شاء الله»

وبإصرار سألته «وأين عبده وآمنة ؟»

– عبده التحق بالجيش منذ وقت بعيد ، وآمنة ذهبت لتقيم مع أهلها فى القرية .

صعدت السلم تريد أن تسأل المزيد . هل رزق عبده وآمنة بالطفل الذى طالما تمنياه وانتظراه ؟ أم مازالا بدون ذرية ؟ ماذا فعل عبده فى مشروع تعلم القراءة ؟ احتل عبده وآمنة جزءا أساسيا فى أحلامها القديمة بالعودة ، حتى أنها ذهبت إلى محل (مذركير) تتفقد لبسا لطفل آمنة المنتظر . كم من المرات تخيلت عودتها ، وبالتفصيل . ستكون عودتها فى بداية السنة الدراسية فى يوم من أيام اكتوبر الدافئة . ستصل هى وسيف معا ، يهلا على الأبواب الزجاجية ، وراءهما خلفية من حديقة مبهجة ، فيهب عبده مسرعا لاستقبالهما ، مرتديا سرواله الصعيدى وعلى وجهه ابتسامته الحيية . تبرق عيناه وأسنانه فى وجهه الأسمر ، ويصيح : الحمد لله على سلامتك ياست عائشة . يقبض على يدها محاولا تقبيلها ، فترفض هى وتصر على مصافحته وتقول : ازيك يا عبده ؟ ازى أحوالك ؟ ازى آمنة؟ هى فين ؟ . وحين تسمع آمنة الأصوات والجلبة ، تطل من غرفتها تحت الدرج ، وترى عائشة ، فتخرج وهى تعيد ربط منديل رأسها الملون ، وتشرق ابتسامتها الواسعة على وجهها المليح ، وتأخذها بالحضن ، وتحمد الله على سلامتها وتسألها «خلاص حتخليكى معانا على طول؟» وتقول عائشة «نعم» . تقول آمنة : «منورة ، والنبى منورة» . ويحملون جميعهم حقائبها إلى الشقة أعلى . سيضطرون كلهم إلى النزول والصعود مرتين لكثرة حقائبها بعد هذا الغياب الطويل فى الخارج . فيما

بعد ، تنزل إليهم حاملة الهدايا . حرير لآمنة يكفى لفستان فاخر ، ومعه الكلف والأزرار اللازمة . وساعة لعبده ، ولو كان هناك صفل.. وصلت إلى طابقها .

الممر مظلم ، وفى يدها المفتاح القديم ، ولكنها لا تميز الثقب فى الباب . مدت يدها كيفما اتفق ، وفى الحال دخل المفتاح فى الثقب هل هذه مصادفة ؟ هل وجدت الثقب مصادفة أم أن يدها تتذكر موقعه ؟ أدارت المفتاح ، كان متصلبا بعض الشىء ، لكنه دار ، دورة واحدة وانفتح الباب فى الحال كالعادة .. يترك الشقة أسبوعين دون أن يكلف نفسه عناء إحكام سك الباب . ثم تنبهت : هذا أمر لم يعد يخصنى .

دفعت الباب قابلتها رائحة مدفونة فى الذاكرة . مستحيل . إنها رائحة الطلاء الجديد . أثناء السنة التى قضياها هنا ، كانت الرائحة موجودة باستمرار ، ظنت أنها ستزول مع الوقت مع مرور السنين فى عمر الشقة . جاء زمان وذهب زمان والرائحة لا تزال موجودة . ربما قام بطلاء جدران الشقة من جديد ؟ تحسست أطراف أناملها الجدار بحذر حتى وجدت مفتاح النور . لا لم يطل جدران الشقة ، هى كما كانت دائما : واجهة لونها أخضر زيتونى ، والأخرى أبيض سن الفيل . إذن فإحساسى بهذه الرائحة أشبه بإحساس الإنسان الذى تبتر رجله فيظل يشعر بآلامها . أشم رائحة الطلاء لأنى تعودت أن أشمها - لا لأنى أشمها فعلا .

جالت عيناها حتى وقعت على حوض أبيض من رخام فى وسط الحائط الزيتونى بغرفة الجلوس ، ووضع عليه لوح من الكرتون ، ترقد فوقه نسخ قديمة من دليل الهاتف . كم رسما من خطط لهذا الحوض ! « سوف نصنع منه نافورة صغيرة ، ونغطى الجدار حول صدفته بقيشانى قدم، ونحيط قاعدته بنباتات فى أحواض نحاسية كبيرة». كان أول شئ اشترياه للمنزل: فى جولة فى الحسين، وجداه ملقى فى ركن دكان عتيق. ساوما البائع، فأعطاه لهما بثمانية جنيهات بدلا من عشرة: الحوض، والصدفة والقاعدة. حملاه برفق إلى السيارة، وبحثت هى،

فيما بعد، عمن يجليها ويركبها. دلها أحدهم على محل فى تحت الربع، فذهبت بصحبة حماتها، واتضح أن الرجل المقصود متخصص فى تنظيف شواهد القبور. صدمت طنط عديلة، وتشاءمت، وطلبت من عائشة ألا توكل المهمة إليه. ضحكت عائشة: فلا نذير شؤم يستطيع تغييب شمس سعادتها، ولا شاهد قبر يستطيع إلقاء الظلال على المستقبل. تركت الحوض فى تحت الربع لتنظيفه وسط ملائكة مجنحة وشواهد محفورة. وبعدها تم تركيبه، بصدفته الجميلة، على الجدار الأخضر. أحيانا، كانت تملؤها بالماء، وتضع فيه آلة صغيرة، ابتاعها أبوه لهما، تقوم بشفط المياه ورشها، مكونة بذلك نافورة مصغرة، كانت مبعث سعادة وبهجة لأصدقائهما. كانت تمضى الساعات - على الكرسى الهزاز - ترقبها.

أدارت رأسها فوجدت الكرسى الهزاز: مازال حيث تركته من ست سنوات: قرب رفوف الكتب، ومائل نحو باب البلكونة. أهداها إياه أستاذ الشعر ذو الشفتين الغليظتين: وصلهما بعد ثلاثة أيام من حفل الزفاف، ومعه باقة كبيرة من أزهار عصفور الجنة، وصار - من وقتها - مقعدها المفضل.

خطت داخل الشقة، وأغلقت الباب خلفها بهدوء. يحتاج إلى تزييت، فمن الصعب إدارة الأكرة. حين واجهت الشقة المظلمة أحست بالدوار. اتجهت بسرعة يسارا، عبر الممر الطويل، إلى الحمام. لم تشعل الضوء، بل انحنت أمام المرحاض لتتقيأ. تساءلت إن كان السيفون مازال يعمل جيدا؟ نعم، مازال. كانت أعمال السباكة فى الشقة متقنة، تبعث فى نفسيهما الرضا.

غسلت فمها، وأسنانها، ثم رفعت رأسها، فرأت صورتها منعكسة فى المرآة الكبيرة المعلقة على الحائط. تذكرت أن المرآة كانت جزءا من شماعة إنجليزية وجدتها فى محل للأثاث القديم، رأى هو أنها بشعة، فتوصلا إلى اتفاق بالاحتفاظ بالمرآة وإطارها، والتخلص من باقى القطعة. عادت إلى المرآة. لم تعتد هذه الصورة فى هذه المرآة. آخر مرة نظرت فيها، طالعتها امرأة مختلفة عن هذه

التى تراها الآن . أخذت تميز الاختلافات: وجه أنحل محاط بشعر أقصر وأكثر تجعيدا - ولكنه مازال أسود، وحول عنقها عقد من اللؤلؤ بات اليوم جزءا منها. مرت عليه بطرف سبابتها، وتذكرت غرفتهما بالفندق الباريسى، وانبهارها حين ألقى بالعقد فى حجرها. هزت رأسها. حتى تعبيرات وجهها تغيرت. يرى فيها الناس هدوءا - يرون فيها سكينة يعلم الله كم هى هشة كقشرة البيض. هزت رأسها مرة أخرى. ستارة الحمام والقطع المتناثرة المتناسقة اشترياها من بيروت بميزانية محدودة. ذكرت شوربة البصل مع الخبز المحمص فى فندق المارتينيز فى الواحدة صباحا، وهى تحسب ما تشتريه فى الغد. طبقة الجبن اللذيذ على الشوربة تمتد مع الملعقة والخبز المحمص يقطعها - هل يمكن استعادة كل هذا؟ لمست عقدها مرة أخرى. أين هما اليوم؟ وبيروت نفسها، أين هى اليوم؟

مدت يدها إلى المرآة وبخفة لامست ملامح وجهها، لكن المرآة حاجز يحول بينها وبين الكائن الحى خلف الزجاج. لا تستطيع لمس ملامح وجهها: الأنف لا يبرز، والشفتان لا طراوة لهما. وفكرت أن هذه استعارة تصلح لوصف علاقتها به: تراه، وتستشعر تضاريسه، ودفئه، فإذا بادرت بلمسة لم تجد غير سطح أملس - مثل زجاج شفاف، غير قابل للكسر. أحيانا تشعر أنه وضع هذا الحاجز عمدا فيثور فيها غضب عارم ، وأحيانا تراه سجينا خلف الزجاج، يتطلع إليها لتخلصه. وقفت فى مكانها دون حراك. مرتين، أثناء العام الذى قضياه معا، حبست نفسها هنا، فى هذا الحمام، زنقت نفسها وراء الباب، وأخذها البكاء حتى صعب عليها النفس - وفى المرتين لم يأت للبحث عنها وعندما خرجت أخيرا، منهكة، وجدته فى مقعده المفضل فى غرفة الجلوس، محاطا بدخانه الأزرق، يقرأ، والموسيقى الكلاسيكية تصدح من آلة التسجيل. تبدو الفترات السيئة وكأنها مسلسل من الحمامات فى فنادق العالم، تحبس نفسها، تتقيأ وتبكى، أو تجلس على الأرض تقرأ، الليل كله، بينما ينام هو، غير مبال، فى أسرة كبيرة تسخر منها.

مشت عبر الممر إلى غرفة الجلوس - الأريكة القديمة والكراسى تجثم بهدوء فى الظلام. عبرت إلى الأريكة، وجلست، فأحست مرة أخرى بنعومة الوسائد الخضراء المخملية. تفحصتها جيدا: الريش مازال يتسرب منها. وقتها، ظنت أنه بعد مرور السنين لن يبقى منه شئ، وها هى اليوم، والريش مازال يترسب من الوسائد.

الكتب فى أماكنها: الاقتصاد والهندسة إلى اليمين، والأدب والفن إلى اليسار، وفى الوسط كتب التاريخ. أما الكتب صغيرة القطع، فكانت فى المكتبة المبنية فى الجدار، وعلى رفها الأسفل كانت الأشرطة. وجدت عددا من الأشرطة الجديدة، وكذلك جهاز تسجيل جديد.

رفعت نظرها إلى الجدار فوق جهاز التسجيل.. مكان صورتها علقت مطرزة دمشقية تبين عنترة ممتطيا جواده، ومن فوقه عبلة فى هودج على جمل. الجواد يتخايل، يكاد يرقص، وعبلة من وراء ستار هودجها، تطل بحياء، وتبتسم، وفى جانب كتب:

ولقد ذكرتك والرماح نواهل   منى وبيض الهند تشرب من دمى

فوددت تقبيل السيوف لأنها   لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وفى جانب:

أنا العبد المشهور فى كل الأنام بالقنا مع ضرب الحسام

تجولا يوما فى الدروب الضيقة للسوق الكبير المحيط بالجامع الأموى، فوجدا هذه القطعة المطرزة بخيوط ذهبية على خلفية سوداء. رفعتها أمامه وهى تضحك وتقول « خذها شعاراً لك : فهو مثلك تماما فى ثقته فى نفسه » . للحظة كان سيبدأ فى الدفاع عن نفسه، ثم أمن لحبها ، وأدرك حسن نيتها، فابتسم ، واشتراها .

كانت ملاحظاتها فى محلها : يعيش بمقاييس بطولية يدين بها أى فارس من القدماء . لو عاش فى العصور الوسطى لقتل الغول ، والمارد ، وأنقذ الأميرة بنت السلطان ، ولكان عادلا بين رجاله ، رفيقا بخيله ، مؤمنا بوفاء زوجة تجلس بالدار شهورا فى انتظاره – ولو عاش فى العصور الوسطى لكان إيمانه فى محله – ربما .

كان يردد أنه عشية موقعة (ماراثون) ، أمضى أهل إسبارطة يومهم الأخير فى التزين وتصفيف الشعر : كانوا يستعدون لاستقبال الموت . حين أعلن الفراق ، جاء إلى غرفة الجلوس فى المنزل المستأجر فى ذلك الشمال البارد ، حسن الهندام فى سترة صوفية وقميص من الحرير ، سيارته أمام الباب ومفتاحها فى يده ، يخطو بعناية الثمل ، ويعلن من أعلى الدرج : «لقد مشطت شعرى» .

نكست رأسها بين يديها . انتهى الأمر . انتهى الأمر ولن نعود . لننسى . لننسى كل ذلك الآن – درج المكتب نصف مفتوح ومزدحم بأشياء غير مرتبة : أوراق ، ورسائل وطفاية سجائر ، وقارورة فضية فى جراب من الجلد ونصف قشرة جوز هند قديمة ، وبوصلة من طائرة تحطمت ومسدس . مدت يدها والتقطته: مسدس قديم من نوع كولت ٤٥ر رقمه المسلسل ٩١ ** قال «عندما تطلق النار على رأسك ينفجر دماغك ملطخا كل ما حولك : تلتصق قطع المخ بالحوائط» . سألته : هل يمكن تحاشى ذلك ؟ قال : قبل إطلاق النار ، تضع رأسك فى كيس من البلاستك .

رن جرس الباب ، تجمدت فى مكانها عاد الرنين فذهبت إلى الباب وفتحته . ناولها صبى قمصان مكوية ، فأخذتها :

– كم تريد ؟ .

وضعت القمصان على الأريكة ، وأخرجت حافظة النقود من حقيبتها وأخذت منها المبلغ المطلوب عادت إلى الباب وناولتها للصبى .

– «عندك شيء آخر للكى ؟ ».

– لا . ليس اليوم شكرا .

أغلقت الباب واستدارت تواجه الشقة من جديد . غرفة الطعام هذه هى قطع الأثاث الأثيرة عندها . مصنوعة من خشب البلوط القديم يتشكل منه رأس أسد وتنين ، تمسك بهما لتفتح الأدراج . بدت الطاولة الرحبة والبوفيهات كأنها تنظر إليها فى عتاب وفى حزن مستسلم فتحت بوفيه فتلألأت فى ناظريها الكئوس والأكواب . كم أحبت هذه الكئوس . وطقم الصينى المذهب . كانا يغطيان الطاولة بمفرش من الحرير الدمشقى ، ويوقدان الشموع فى حاملات من الفضة المنقوشة. بحثت بعينيها عن الفضية . الصوانى وحاملات الشموع ليست فى مكانها المعتاد. فتحت أبواب أحد البوفيهات فوجدت الإناء اليابانى الأبيض الذى اشترياه من طوكيو . أحست بموجة من التعب ترتفع لتغمرها ، فسحبت كرسيا وجلست . العالم كله مفعم بذكراه . أليست هناك بقعة ، بلدة ، بلدة واحدة محايدة ، تجد نفسها فيها بدونه ؟ لماذا لا تستسلم إذن ؟ لماذا لا تعود ؟ طوكيو والبنات دقيقات الحجم بأثوابهن القصيرة الحمراء وقفازاتهن البيضاء ، يدرن المصاعد للزبائن وينحنين : شكرا لتبضعكم فى متجرنا ، نرجو أن تكونوا قد استمتعتم بيومكم معنا ، أملنا أن تزورونا مرة ثانية . وتلك المعابد زاهية الألوان لبوذا ذى العينين الناعستين ، يجلس فى غموضه الهادىء وهى تصفق بيديها ، ثم تربط ورقة مطوية على أمنية فى أحد أغصان الشجرة المقدسة . كانت تتمنى شيئا واحدا .. يارب ، أصلح الأمور بيننا .. يارب ، أدعو إليك هنا وفى كل مكان قدسه الناس : أصلح الأمور بيننا .. أحست بالدموع المألوفة خلف جفنيها ولكنها لن تبكى فقد مر عامان على ذلك اليوم فى غرفة الجلوس فى الشمال البارد وأبدا لن تبكى من جديد .

تابعت بحثها عن القطع الفضية ووجدتها فى البوفية الكبير . أخرجتها : صوانى ، وشمعدانات وطفايات سجائر ، وكئوسا للتنس، والشيش ، والطالبة

المثالية – انطفأت كلها واسودت ، وصارت تبعث على الأسى بالطبع ، هو لا يتحمل رؤيتها متسخة ، لكنه كذلك لن يكلف نفسه عناء تلميعها . فيخبئها فى ركن البوفيه ، بعيدا عن ناظريه ، لعلها تختفى ، أو بمعجزة ما تنظف نفسها ، دعكت كأسا بإصبعها – هل تجد لديه (براسو) للتلميع ؟ اتجهت بنشاط إلى المطبخ – اشترت طنط عديلة لهم أثاث المطبخ وخاطت خالتها الستائر . جميلة الستائر بورودها الزرقاء الصغيرة . نور الشمس يتخلل القماش فيضفى على المكان ضيا بشوشا لينا . وهناك طاولة الإفطار والموقد الذى تعلمت عليه كيف تطبخ شوربة الجولاش . نظرت إلى حوض غسيل الصحون . فيه كئوس متسخة خلعت خواتمها وساعتها وبدأت تغسلها . تذكرت الحفلات التى كانا يقيمانها : كان البيت دائما حافلاً بالأصدقاء . كيف استضافا كل هؤلاء والمطبخ صغير كهذا ؟ وهذه الثلاجة الصغيرة ؟ فتحت الثلاجة : داخلها الأوانى التى اختارتها بعناية ، والتى تعكس الورود الزرقاء على الستائر . فى باب الثلاجة زجاجة بيبسى ، وكرتونة عصير برتقال ، وسبع بيضات . تناولت وعاء دائريا وفتحته : مربى . غمست طرف إصبعها ولعقت : مربى البلح التى تعدها طنط عديلة . فى مخيلتها صورة واضحة له وهو صبى فى السابعة ، يلعب على شاطئ البحر فى الإسكندرية ، ومربيته تشق طريقها على حافة الموج ، ممسكة ثوبها بيد ، وباليد الأخرى شطيرة ، تلوح له وتنادى : «تعال ياسيف ، تعال كل» . حين كان فى السابعة لم تكن هى قد ولدت بعد ، لكن الصورة مطبوعة بوضوح فى مخيلتها من قصص طنط عديلة فى كل مرة كانت تهديها برطمان مربى البلح . ترص البلح المحشور بالجوز والقرنفل بعضه على بعض ، ثم تصب عليه الشربات . تقول : «مربى البلح دائماً يخرجه من البحر . كان يحب البحر ، ولكن كان حـبه لمربى البلح أقوى» . أغلقت الإناء والثلاجة . أين صوره وهو طفل ؟ وضعتها فى أطر مذهبة ، وعلقتها . لم ترها اليوم فى أى مكان . وهو لم يكن متحمساً لها . عادت فتذكرت الفضة ، وأخذت تبحث عن سائل التلميع فى خزانات المطبخ . وجدت ورنيشا لتلميع الأحذية ، وصابونا .

أغلقت باب الخزانة وعادت إلى غرفة الطعام . ببطء ، أعادت القطع الفضية إلى ركن البوفيه . بمقدورى أن أشترى سائل التلميع . بمقدورى أن أخرج الآن ، وأشتريه ، وأرجع لألمعها . أغلقت باب البوفيه ، وعلى الجدار فوقه رأت خارطة سيناء : الخارطة الحربية القديمة التى استرشد بها فى رحلته الشهيرة عبر الصحراء . ذهب مع صديق له . عبرا الصحراء بالجمال ، وقضيا أياما فى دير سانت كاترين ، وأسابيع مع البدو . تستمع إلى قصصه بعينين ملؤهما التشوق وتسأل : «هل نعبر الصحراء معاً» ؟ فيجيب ضاحكا : «ولكنى عبرتها» . نعم . عبرها . وقام بأشياء أخرى كثيرة . ذكرياته أوضح فى مخيلتها من ذكرياتها هى . لم يكن لها حتى ذكريات ، لم يكن لها ماض ، وفى لحظات الهلع ، وراء باب الحمام الموصد ، كانت تجزم بأن ماضيه يلتهم حاضرها .

انتزعت نفسها من الصحراء والجبال ، ومشت إلى غرفة الجلوس ، فوقع نظرها على القمصان المكوية . رفعتها بعناية واتجهت إلى خزانة الملابس فى الممر. فتحت الضلفة اليسرى ، فوجدت صفوف القمصان النظيفة المكوية . رصت ما معها : الأبيض مع الأبيض ، والملون مع الملون ، ولاحظت عدد القمصان التى لم تعد تتعرف عليها . ثم ، دون أن تفكر ، فتحت الضلفة اليمنى ، وهاهى البدل والسترات تتدلى ساكنة فى أماكنها . ومعطف الشتاء المبطن بالفراء ، الذى اشترياه معا فى إحدى زياراته لذلك البلد البارد البعيد . كانت تدلله ، وتقول : «من يجلس دافئا فى فرائه» ؟ فيبتسم ، ويرفع الياقة حول رقبته . مدت يدها ومررتها تتلمس الفراء . آه لو تدفن فيه وجهها ، لو تتشمم رائحته مرة أخرى – مرت بيدها على ظهر المعطف فلامست شيئا معلقا وراءه : شىء مغلف بملاءة بيضاء . كشفت الملاءة فإذا هى تواجه فستان زفافها . فستان مستوحى من الأحلام : دانتيل أبيض مبطن بالساتان الرصاصى الفاتح ومطرز باللآلىء الصغيرة . بيد مرتجفة أعادت الغطاء عليه ، وانحنت لتحكم الملاءة حول الذيل

الطويل ، فوقعت يدها على صندوق من الكرتون ، جذبته . ودون أن تنظر فيه تعرف ، تعرف ما بداخله . ترددت ، ثم فتحت الغطاء . صرخت ، وتراجعت إلى حائط الممر . طرحة زفافها ، ترقد ، وفوقها التاج الصغير المطرز ، والكل حي يتنفس بالعتة السوداء . حملت الصندوق إلى المطبخ ، ووضعته في الحوض ، وبحثت عن الكبريت ، وأشعلت النار . وقفت أمامه إلي أن احترق ، ثم غسلت الحوض . غلبها الشعور بالغثيان ، فأسرعت إلى الحمام . دائما الحمام .. فتحت الماء ونظفت فمها ، ثم اتجهت إلى غرفة النوم وهى تحس بدوار . رقدت على السرير الكبير ، حريصة ألا يلمس حذاؤها الأغطية الوردية . ظلت راقدة ، والدنيا تدور من حولها ، وأحست بالدموع تنساب من عينيها إلى السرير . هذا أيضاً مشهد مألوف : الرقاد هنا .. الغثيان .. البكاء .. الوعكات المتتابعة التى وصفوها بالهستيرية . «ماذا بك» ؟ كانوا يسألونها . «لماذا لا تهدئين ؟ لماذا لا تستقرين» ؟ وإجابتها دائماً : «لا أعرف» . رقدت ، وبكت ، حتى غلبها النوم ، وهى حريصة على ألا يمس حذاؤها السرير .

حين استيقظت رأت الجدران المغطاة بالورق المزهر ، والستائر البيضاء العفيفة . لم تتساءل لحظة «أين أنا» ؟ فهى تعرف جيدا أين هى . لم تعرف فقط بأى زمان هى ؟ ماذا حدث ؟ تساءلت وهى على السرير . أين هى ؟

ما هذا الحلم الذى حلمته ؟ رفعت نفسها على مرفقيها ، فرأت صورة منعكسة فى مرآة طاولة التسريحة . لم تر فتاة بوجه مستدير ، وشعر أسود ، أملس ، طويل . رأت امرأة ذات شعر متوسط الطول ، مجعد نوعا ، وفى جيدها عقد من اللؤلؤ . مرت لحظات ، والعين فى العين ، فى ألفة ، وحزن ، وارتياح . نزلت برفق من السرير ، وأصلحت الفراش بعدها ، وتركت الغرفة .

فى غرفة الجلوس ، اتجهت إلى الجهة اليسرى من المكتبة . تفحصت رفوف الأدب ، وأخذت دواوين صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطى حجازى . حملت

الكتب ، وحقيبة يدها ، وخرجت من الشقة ، بعد أن أطفأت الأنوار . ومن الخارج، أغلقت الباب ، ثم أدخلت المفتاح فى الثقب ، وأدارته ، بحزم ، مرتين .

تحت أشعة الشمس الكاشفة ، ركبت السيارة الصغيرة . وضعت الكتب الخمسة على المقعد بجانبها ، واتجهت إلى الجانب الغربى من الساحة . قادت السيارة برفق حول المطبات ، حتى خرجت من الطريق الوعرة ، ووصلت إلى الدوار مرة ثانية ، وهناك أسرعت .

أذكــرك

(إلى نهاد جاد)

أفكر فيك . أفكر فيك كثيراً ، وأتذكر . أتذكر مثلاً مربيتك العجوز تدخل غرفتك، تمسك طرف طرحتها بأسنانها فتخفى نصف وجهها . تطل عليك من وراء غشاوة المياه البيضاء تكسو عينيها ، فتراك مضببة مهزوزة . أتذكر زوجك يضع سماعة التليفون ، وإشارة يدك الدقيقة تسكت الكلمات المتبرمة على شفتيه . كانت العجوز تتمتم بالتعاويذ : تتحرك نحوك ، ترسم بالمبخرة دوائر متقلصة تشى بآلام الروماتزم فى ذراعها . ومن خلال النافذة ، بدا ظلام ليل القاهرة شديد الدكنة ، لو مددت إليه يدى للمست مخملا أسود . .

الآن تنتشر رائحة بخور العنبر فى هذه الحجرة كذلك . عيناى تتبعان الدخان الحلو ينسحب خلف التمرجية ، وتترائين لى مرة أخرى جالسة فى الفراش . تبدين رائعة . تلفين رأسك بعمامة سخية من الحرير الأخضر . من مكانى على الكنبة كنت أرقبك : ضوء المصباح خافت على الطاولة ، وسريرك على منصة ، يغطيه حرام كبير من الفراء الأبيض . داخل فستانى الخفيف ، كانت حياة جديدة تدفىء جسدى . أما أنت ، فوضعت شالاً من الصوف الأبيض حول كتفيك ، ويداك تضمان الشال على صدرك . وبدت أناملك أطول وأرهف مما عرفتها ، وإن كانت أظافرها لا تزال مطلية بالأحمر القانى الجرىء .

رأيتك وقتها ملكة فى زمن قديم . رأيتك المرأة والأم الأبدية . واليوم ، وقد حطمت قلوعى فى هذا البلد الغريب ، أسأل نفسى كيف يمكن أن تراك هؤلاء النسوة اللاتى أجد نفسى بينهن ! خمس من النساء ، كل واحدة فى سرير . يرتدين جلابيباً رمادية أو بنية اللون ، صممت لكى يبدو الجسد داخلها كتلة واحدة، صماء . لفت رءوسهن بإحكام فى طرح سوداء سميكة . وتركت فوق الرءوس طيات جديدة من القماش الأسود ، تنسدل على الوجوه فى أى لحظة .

قميص نومى القطنى الأبيض فضفاض ومقفول بالأزرار حتى الرقبة ، أكمامه واسعة ، لها أساور بكرانيش تغطى ظهر اليد ، لكنه يبدو خفيفاً ومخجلاً إلى جوار

الطبقات السميكة الغامقة التى يرتدينها . شعرى مكشوف . أضمه إلى الخلف فى ضفيرة فأشعر بحركة ذراعى تحرك نهدى داخل قميص النوم . ليس معى رباط أروض به شعرى .

رأسك كان يغطيها الحرير الزمردى ، يترك مساحة من الشعر الأسود تزين جبهتك . ومن تحت الحرير ، تسللت خصلة دب فيها الشيب فالتفت على رقبتك . دخل ابنك ، ذو الأعوام الخمسة عشر ، وقطب عندما شم رائحة البخور . لوحت مربيتك العجوز بالمبخرة فى أركان الحجرة ، وضرب كلبك المستلقى عند نهاية سريرك بذيله وهو ينظر إلىّ بعيون حزينة . قبل أن يغادر ابنك الحجرة صعد إلى المنصة ليقبلك . سريرك فى عليائه المسرحى يليق بكليوباترا .. يليق بليال وصباحيات من العشق السلطانى .. ويليق أيضا بمشهد الوداع .

أدفع بقدمى الحافيتين من تحت الملاءة وأدليهما من السرير . أظافر القدمين مهذبة ، مطلية ، استطعت مرة أخرى أن أنجزها بعد انحناءات والتواءات ومناورات حول بطنى الضخم ، تبدو الآن شارات عشرة من العار . عندما تلمس قدمى الأرض ينحسر قميص النوم ، ليكشف عن كاحلين متورمتين . ينفتح باب العنبر ، ويسمع سعال مؤدب منبه ، ويدلف رجل إلى الداخل . تطير أربعة أزواج من الأيدى إلى أربعة رءوس ، وتنسدل أربع أنقبة على أربعة وجوه ، وتخرس كل الأصوات . أقف ثقيلة ، وأمد يدى إلى الستائر ، بينما يسير الرجل ، وهو ينظر فى الأرض ، إلى السرير الخامس ، ليجلس إلى جانب زوجته . المفروض ألا أتحرك .. ألا أتحرك على الإطلاق . ولكنى أسير ببطء حول السرير ، لأقفل الستائر المقلمة بالأخضر والأصفر : أشد أطرافها ، وأضع الطرف فوق الطرف بعناية ، حتى يكتمل انعزالى . أصعد بصعوبة إلى السرير مرة أخرى . أرقد على ظهرى ، وأشد الملاءة حتى ذقنى . أشعر بسخونة الدموع تغشو مقلتى ، فأتركها تنساب ، لتبرد على وجهى ، وتنزلق جانباً ، فتصل إلى شعرى . لا أريد أن أكون هنا .

رقدت يدك إلى حد الشفافية . شبكة من العروق الزرقاء تظهر تحت البشرة . حاجباك مرسومان بدقة : جناحان يرتفعان أعلى عينيك بسوادهما العميق . عظام خديك (آه .. كم كنت أحسدك على عظام خديك) ! أضحت أشد بروزاً . أما فمك فبقى على حاله : متسعاً قويا . شفتك السفلى ممتلئة ، تعضين عليها وأنت تلتفين بالشال ، تحبكينه حولك أكثر . وقفت والدتك عند الباب تنوء بثقل سنين العمر ولهفتها عليك ، وأشعل زوجك سيجارة أخرى ، وتصفحت أنت جريدة المساء .

أما أنا فجلست على الكنبة أتعجب كيف تستطيعين – ولكن ، هل كان يمكنك أن تكونى غير ذلك ؟

المرضة الفلبينية تزيح طرفى الستارة ، وتقول ، وهى مبتسمة بينهما :

«لابد لك من بعض الهواء».

تخطو بخفة حول الفراش حتى تفتح الستائر تماما . زائر السرير الخامس قد خرج ، والنساء يتحدثن الآن فى أصوات منخفضة . ترفع المرضة معصمى ، وتنظر فى ساعتها ثم تعيد يدى الى السرير ، وتهز الترمومتر . تقول بنغمة موسيقية صاعدة وهى تضع الترمومتر فى فمى :

«لماذا تبكين ؟ ستكونين بخير»

هل بكيت ياعزيزتى ؟ لم أرك أبدا تبكين . ومع ذلك أظن أنى أسمع شهقات بكائك – شهقات تنتزع من الروح – فى ظلام الليل ، وأهل البيت قد أووا الى النوم .

تقوم إحدى النساء من سريرها ، وتمشى الى الحوض الموجود بجانب ستارتى المفتوحة . تسعل ، وتبصق ثم تفتح الصنبور لتغسل الحوض . تعبر الخطوتين الى سريرى ، وتقف ، وتنظر الى :

– لاتبكى .

أومئ لهـا برأسي . مـاذا يعنيني ان كـانت تبـصق في الحـوض ؟ هل تبـصق علي؟!

– ليش البكاء ؟ .

أهز رأسي في ضعف . لو فتحت شفتي أحاول الكلام فسوف أعوي .

– ماتتكلمي عربي؟ .

– طبعا باتكلم .

يخـرج صـوتي مـتحـشرجـا ، مرتعـشـا . لا أسـتطيـع أن أتعـرف على سنـهـا برادئـهـا الذي لاشكل له ، ورأسـهـا الملفـوف ، يمكن أن تكون في أي سن بين الثامنة عشرة والخامسة والأربعين .

– حامل ؟ .

أومئ مرة أخرى .

– إيش فيك ؟ .

أهمس : الضغط مرتفع .

– كل شيء بأمر الله .

– صحيح .

– أرفع لك السرير ؟ شكلك ما مرتاح .

أهز رأسي . لا أريد أن أرتاح . ولكنهـا تعـالج السـرير بحيث يرتفع رأسي وكتـفـاي قليلا . تحـاول أن تكون لطيفـة مـعي . هو حب استطلاع ، ومـعـه طيـبة أيضا . ولكني لا أريد أن أرتاح . لا أريد أي شيء إلا أن أكون لست هنا .

أريد أن أكون مع ابنتي . تسألني في التليفون :

«ليه لازم يفرقونا كده؟»

إنها فى الخامسة وتختار كلماتها بعناية . أريد أن أكون معها ، وهى تلعب فى الماء ، فى حوض السباحة : ذراعاى تخلقان دوائر فى الماء ، تتكسر فيها أشعة الشمس ، الى أشكال تتغير ، وتتبدل ، بينما هى تسبح بعيدا عنى ، حتى حافة الحوض ، ثم تعود .. وتعود .. أريد أن أمسك بقدمها وهى نائمة : تستلقى على ظهرها ، وساقاها، وذراعاها ممدودة . أريد أن أرقب عينيها ، فى الضوء الخافت ، تتحركان تحت جفنيها المائلين الى البنفسجى الفاتح - أرقب عينيها ، وأحاول أن أرى ماتحلم به .

وقفت فى النافذة أرقب سائقك والبواب العجوز ، يقفان معا فى الحديقة لصلاة المغرب . شعرت بدعواتهما لك . فى الشارع ، على الرصيف المقابل كان شاب وفتاة يتسكعان فى جو الربيع اللطيف ، ذراعاهما متشابكان ، وينظران فى فترينة محل تلمع بأحذية مدندشة . ومن ورائهما ، لمحت أضواء سينما روكسى. اقترب زوجك من السرير ، ودقق فى زجاجة المحلول . من حجرة الجلوس ، أتت همهمة محادثة ، أنهتها رنة التليفون . ثم جاءت بعدها رنات جديدة عندما رفع أحدهم السماعة ، ليطلب رقما آخر .

عادت الممرضة الفلبينية ، ومعها شاب يرتدى معطفا أبيض . تراجعت المرأة الواقفة بجانبى الى سريرها . يحدثنى الطبيب ، وسماعته تتأرجح فى وجهى :

«يجب ألا تبكى ياسيدتى . البكاء مضر لك»

يتكلم بأدب ، وبلهجة سورية . عيناه تلمعان بشدة . لونهما عسلى فاتح . فمى يتشكل فى ابتسامة مهذبة ، ويدى على السرير تتحرك فى إشارة ضعيفة، لتقول له ألا يعير الأمر اهتماما . يردد : «اطـــــرحى عنك الخـــــوف فكل شىء بأمر الله».

أومئ برأسى وأغلق عينى برهة . أجدنى عاجزة عن الكلام . يقف ناظرا الى . يبتسم وعيناه تشعان لهبا . أتمنى لو كنت أستطيع أن أطمئنه . ياسيدى

لست خائفة . أنا حزينة ، موحوشة . حزينة ، وأريد ابنتى . أحرك رأسى مرة أخرى .

جارتى فى المجمع السكنى قالت :

«يمكن أن تفاجئك أزمة فى أى وقت . وإن لم تكونى وقتها فى المستشفى فستموتين» .

قلت : عندما أحس ببوادر الأزمة سأجرى إليك .

– لن تستطيعى الجرى .

– سأمشى إذن .

– المسألة ليست هزارا يجب أن تدخلى المستشفى .

– كيف أذهب الى المستشفي والامتحانات هذا الأسبوع ولابد أن أكون مع طالباتى ؟ .

– ألا تفهمين ؟ أقول لك ستموتين موتا .

فى النهاية ، أحضرتنى للكشف ، وعندما استبقونى ، أخذت ابنتى معها الى منزلها هى ترعاها ، وتتحدثان معى فى التليفون مرتين كل يوم وابنتى فى الحقيقة هى السبب فى أننى أفضل أن أبقى على قيد الحياة . ابنتى ، وذلك الطفل الآخر ، غير المحتفى به ، الموجود داخلى والذى يتشبث بالحياة بكل قوته.

عندما غادر زوجك الحجرة مع الطبيب ، صعدت السلمتين الى سريرك . أخذت قربة الماء الساخن التى رقدت فوق الفراء وقلت :

– مش أحسن تكون تحت الغطاء؟ .

رفعت اللحاف والبطانية والملاءة ، ودسست القربة بجانبك ، ثم أحكمت الغطاء حولك . وضعت يدى على كتفك وقلت :

– هل أدلك لك ظهرك ؟. تنهدت وقلت :

- ياريت .

جلست خلفك وعندما اسْترخيت على جانبك ، لمس ظهرك بطني المتكور ، وأحسست بالطفل يركل داخلى . لا أعرف هل شعرت أنت أيضا به أم لا. دلكت ظهرك بيدى اليمنى ، بروحى كلها . مرفقى الأيسر يستند على وسادتك ويدى اليسرى على كتفك . شعرت بائتناس وراحة . وإن كان على لدلكت ظهرك طول الليل.

يعود الطبيب ذو العينين المتوهجتين . يأتى مسرعا ، يحمل حقنة ويقول :

- بكاؤك يتسبب فى ارتفاع الضغط . سأعطيك بعض الفاليوم . من فضلك ارفعى الكم .

بيدى اليمنى أرفع الكم الأيسر. الممرضة الفلبينية تقول بإنجليزيتها المتكسرة :

- أنت تريد أنا أفعل ؟ .

لايرد عليها ، ويغرس الإبرة فى ذراعى . الدواء يؤلم عند دخوله فى العضل . يسحب الطبيب الإبرة ، وتدلك الممرضة مكانها بقطعة شاش عليها مطهر، يقول وهو يبتسم :

- «ستتامين الآن» .

جسدى مفكك . كل جزء فيه أثقل من أن أحمله ، يداى تبدوان كخفى حيوان بليد . أصابعى - الخالية الآن من الخواتم - تصلبت ، حتى أننى لأعجب كيف كنت يوما أحركها دون عناء . معصمى الذى تعودت أن أرقب فيه ظل النبضات ، تدق تحت البشرة الشفافة - أراه الآن جلدا معتما سميكا. أسند ذراعى على حاجز السرير المعدنى ، فأشعر براحة مؤقتة . الذراع اليسرى تؤلمنى . وإذا حركتها ، فعلى أن أحترس وإلا التفت أنابيب المحلول ، وتعقدت ، وانسدت . ثدياى المتضخمان يشدان جلد صدرى ويعذبانى بثقلهما . اضطر لاحتوائهما فى

سوتيان ضيق ، مرفوع ، يحفر فى ضلوعى، ويضغط على رئتى . كل بضع دقائق، آتى بيدى اليمنى ، لأمسك بأستك السوتيان ، أبعده عن صدرى ، وأتنفس قليلا ، وعندما أعيد ذراعى ، وأعلقها على حاجز السرير ، يسرى فى كتفى ، وصدرى ، شعور بالارتياح ، للتخلص من مجهود رفعه ، ترى ماذا يكون انطباعهم ، عندما يدخلون ، ويجدونى على هذه الحال : جسد معذب ، ذراعاه ممدوة إلى الجانبين؟ هل تتبادر الى ذهنهم صورة الصلب ؟ أم أن الصور المسيحية – حتى هذه الصورة الأساسية – ليس لها مكان فى عالمهم بالمرة . نحن لانفكر بالصورة : ديننا دين الكلمة لا الصورة . أغمض عينى ، «لاتقلقى..» يقولون لى «لا تقلقى .. فالقلق يضرك».

أنا بمفردى ، والحجرة ليست سيئة فيها ، على الأقل ، ألوان من البرتقالى والبنى . الحوائط ، وأغطية الفراش ، بيضاء ، بجوار سريرى تليفون رمادى ، للاستقبال فقط أمى وأبى وبقية الأسرة يكلموننى من القاهرة ، وزوجى يكلمنى من لندن . هناك كرسى من البلاستيك الرمادى ، وتليفزيون على رف فى ركن الغرفة ، بين التليفزيون والشباك لافتة تعلن : «لايجب تحت أى ظرف أن تكونى بمفردك مع الطبيب . اذا حاول أى طبيب ان يفحصك استدعى الممرضة فورا» أرى ذلك مضحكا ورغم تعبى ، أنقله فى مفكرتى . أنا وحدى الآن ولايرانى أحد، فأستطيع أن أتعلق بما بقى منى بجانب اللافتة ، ثبتّ فى الحائط صورة فراشة كبيرة ، وضيئة ، أحضرتها لى ابنتى فى زيارتها الأولى . أوراق الامتحانات بجانبى ، أحاول تصحيحها كلما استطعت .

فى الصباح ترفع الممرضات المحلول عنى ، فأنزل ، بمنتهى الحرص ، من السرير . أمشى ببطء الى الحمام . أتبول ، بكل ما أستطيع من دقة ، فى الوعاء الموجود بانتظارى وأغطيه ، وأعيده الى الرف . ومع أن جسدى لم يعد الجسد الذى أعرفه ، إلا أنى أغسله بعناية ، وأرشه بالكولونيا ، وأضع الكريم

المرطب على الأجزاء التى أستطيع الوصول اليها منه . أمشط شعرى ، وأفعل ما أستطيع بوجهى : أرسم خطا بالقلم الأسود على الجفنين المنتفخين ، وأضع بعض الكحل ، وكريم تلميع الشفاه ، وأرتدى فوق قميص النوم ، جاكيت خفيفا ، له ياقة من الدانتيل . أعود الى الغرفة ، وتساعدنى المرضة فى اعتلاء السرير المرتب . تقول لاينبغى أن أقوم من الفراش ، والمفروض أن أستعمل قصرية السرير، وأن أتركها تنظف جسمي بفوطة مبللة . أبتسم ابتسامة مهذبة، ولا أرد .. إنها نظيفة جدا ، وأنيقة فى مريلتها التيل البيضاء .

ملامحها دقيقة ، وشعرها الأسود اللامع معقوص فى ذيل حصان . تقيس الضغط والحرارة ، والنبض وتدونها ، وتعيد تثبيت زجاجة المحلول . أرقد مرة أخرى ، ويسرى فى جسدى شعور بالإنهاك والغثيان ، ولكنى مستعدة – بالشفاه اللامعة ، والياقة الدانتيل ، والمفكرة ، وأوراق الامتحانات – مستعدة للمرور الصباحي للأطباء ، يندفعون داخل الحجرة ، ويأخذون موضعهم عند نهاية السرير . يقف الاستشارى فى وسط الغرفة تبدو عليه العظمة ، فى ثوبه الأبيض وعباءته السوداء المذهبة . تسلمه المرضة دفتر الملاحظات ، وتتراجع . ينظر فى الدفتر ومن خلفه ، ينظر فيه أيضا النائب الهندى ، ذو الشعر الأملس والوجه المنغلق تماما . وهناك طبيب سودانى : أطلق عليه فى ذهنى «عطيل» ، على وجهه أسى مستديم وبساقه عرج ، ويمسك بعصا من الأبنوس . ثلاث طبيبات من أهل البلد يقفن على مسافة مهذبة . كل ما أراه منهن . عيونهن السوداء من خلال فتحة الحجاب الأسود الضيقة . عندما يذهب الجميع ، تسألنى المرضة الفلبينية إن كانت ذراعى تؤلمنى ؟ تهمس لى بأن الطبيب أخطأ إذ أعطانى الفاليوم فى ذراعى . تربت على فخذى وهى تقول :

– كان يجب أن يعطيك الحقنة هنا ، ولكنه خاف أن يطلب ذلك منك . عضلة الذراع صغيرة . لا تتحمل .

كان ظهرك نحيلا نحيلا : لمست فقراته تحت قميص نومك القطنى دلكت عمودك الفقرى ببطء ، وضغطت على الكتف ، والرقبة رأيتنى أدلك كطفل صغير و أقبل رأسك ، وأبكى عليك . ولكنى جلست وراءك ، أدلك ظهرك، وأفكر فى سفرى فى اليوم التالى . أألقاك عندما أعود فى الصيف ؟ كنت أريد أن أحكى لك – وكان عندى أسئلة أيضا . قلت :

«فاكره لما اتغدينا فى الميريديان ؟» وكان ذلك منذ سبع سنوات

فى الساعة الخامسة رفعت الممرضة المحاليل وقالت :

– يجب ألا تنزلى .

قلت :

– ولكنكم لاتسمحون بصعود الأطفال الى هنا .

نزلت من السرير ، ولبست العباءة السوداء ولففت رأسى فى الطرحة السوداء ، ومشيت ببطء الى خارج الغرفة .

ابنتى تجلس على حجرى ، فى ركن السيدات ، فى قاعة الانتظار الواسعة ، فى الدور الأرضى . تربت على وجهى المكشوف ، فأدفن فمى فى راحة يدها الصغيرة ، البضة . تنثر قبلاتها الندية على عينى ، وخدى ، وأنفى ، وفمى . من تحت أحجبتهن ، تحملق فينا النساء الجالسات فى صمت .

فى اليوم الرابع ، يفتح باب حجرتى ، وتدخل امرأة نحيلة فى ثوب رمادى طويل ومتسع . والنقاب الأسود المعتاد يغطى رأسها ووجهها ، تحمل فى يدها طبقا مغطى، وتنظر حولها لتتأكد أننى فى الحجرة بمفردى :

– مافى رجال ؟ .

– مافى .

ترفع النقاب وتلقيه خلف رأسها :

– السلام عليكم .

– وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته .

تضع الطبق على الكومودينو ، بجانب التليفون ، وتستقر في الكرسى الرمادى، وجهها شاب ، وإن كان لايتميز بجمال ، وبالطبع لاتستعمل المساحيق .

– أحضرت لك ياأختى شيئا يقيم أودك . طعام المستشفى لامذاق له .

– كتر خيرك . لم يكن هناك داع لتتعبى نفسك .

– لانرى أحدا يزورك؟ .

– ليس لى أهل هنا .

تصعب على نفسى ، وأشعر بالدموع تتجمع فى عينى فأغمضهما. أتغلب على الدموع . هذا أقل ما أستطيع أن أفعله .

«يقولون إنك متزوجة من انجليزى؟»

– نعم .

– كيف تتزوجين انجليزيا؟ .

– «قسمتى ونصيبى»

– «ولكنك مسلمة . كيف تتزوجين انجليزيا؟»

– «لقد اعتنق ديننا»

– «وتعيشين هناك؟»

– «نعم»

– «كيف تعيشين هناك؟ إنهم يعيشون كالحيوانات»

– «هم ناس مثلنا»

– «انهم يعيشون كالحيوانات هناك»

– «هم يعيشون مثلنا : فيهم الطيب وفيهم الوحش»

– «انهم يجامعون بعضهم فى الشوارع»

– «نعم ؟!»

– «هناك . يجامعون بعضهم فى الشوارع»

– «لقد عشت هناك طويلا ولم أر أحدا يفعل هذا»

– «أنا رأيت»

– «أين ؟»

– «فى الأفلام . زوجى يحضر أفلام الفيديو ورأيتهم : يذهب الرجال الى الحرمة فى الشارع ويرفع ملابسها ويجامعها»

– «هذه الأفلام لاتصور الحقيقة . إنها أفلام للإثارة»

تنهض وتقول :

– «لازم أروح . كيف زوجك ؟ طيب معك ؟»

– «الحمد لله»

– «زوجى مدرس»

– «ماشاء الله»

ترخى النقاب على وجهها وتتجه نحو الباب :

– السلام عليكم .

– «وعليكم السلام ، وشكرا على هديتك الكريمة»

كنا قد هربنا من حرارة يوليو الى كافتيريا الميريديان المكيفة . شربنا عصير الجوافة والنبيذ الأبيض المثلج وأكلنا سلاطة طماطم مع الجبن الأبيض والخبز البلدى المحمص . مسرحيتك الأولى كان نجاحها مدويا ، وكان الناس فى المطعم

يلتفتون لينظروا اليك . كنا نرقب الشمس تلمع على النيل الفضى الشاسع ، ونمص أوراق الخرشوف ، لنصل الى قلبه الأخضر الفاتح . حكيت لك كيف أحببته ، ثم رويت لك كيف اعتنى بى كالأم عندما أصبت بالنزلة الشعبية :

– «تصورى أنه قرأ لى قصة خرافية ساذجة ليسلينى»

– «تزوجيه»

– «وكيف أعيش معه ولا أتكلم لغتى ؟ وكيف أحيا هناك ؟ والبرد؟»

كان ردك :

– «مصر موجودة لك على طول»

فى اليوم السادس ، حضرت رئيسة التمريض الاسكتلندية ، وقاست النبض ، والضغط . قالت إنى فى حاجة الى المورفين ولابد أن أتوقف تماما عن النزول الى الدور الأرضى .

«ولكنكم لاتسمحون للأطفال بالدخول الى هنا ولابد أن أرى ابنتى»

قالت إن جسمى أصبح كغرفة الضغط ، وان اى حركة تزيد من الضغط على طفلى .

وماذا عن الضغط العصبى ؟ وماذا عن التعاسة ؟ وعن الإحساس بالوحدة ؟ وحاجتى الى ابنتى وحاجتها لى ؟

قالت : «هؤلاء الناس حيوانات .. حيوانات لايفهمون شيئا . يعتقدون أنهم بالقواعد والقيود أصبحوا متحضرين . لاتضايقى نفسك ياصغيرتى . فكرى فقط فى طفلك ، وكونى فتاة مطيعة ، تخرجين من هنا سريعاً .

طالباتى اتصلن بى ، وأرسلن لى الورود ، والفاكهة كل واحدة عرضت أن تأخذ طفلتى الى منزلها ، لتسبح وتلعب مع أولادها ، ولكن أحدا لا يستطيع أن يحضرها الى هنا .

زوجي يحدثني بالهاتف كل يوم .

أصحح أوراق الامتحان . بعد كل سؤال . لابد أن أتوقف لأرفع أستك السوتيان وأتنفس .

تركتك في فراشك ، وأمام بوابة الحديقة رفعت عيني الى بيتك : بيت أبيك ، وبيت أبيه من قبله : وكان متوهجا بالأنوار . هنا في الشارع ودعته - زوجك ، صديقي القديم ، ربتنا على أكتاف بعض ، ولم نقل شيئا ، وانتحى البواب جانبا ، يمسح وجهه بكم جلبابه الصعيدي الواسع .

أمي تتصل بالتليفون وتقول إنك سافرت الى أمريكا وعدت ولكن .. لا .. ليس هناك تحسن . هل تفكرين في الموت ؟ .. أكيد . أكيد تعرفين أنك تحتضرين . استأصلوا نصف المعدة ، ويغذونك عن طريق إبرة مغروسة بيدك . إخوتك يطوفون بمستودعات الأدوية ، يتناوبون الورديات ، وأبناؤك يروحون ويجيئون ، ولا أحد ينطق باسم مرضك المخيف . كل الكلام يدور حول القرحة والمضاعفات غير الواضحة ، والعملية الاستكشافية - ولا يتطرق ابدا الى إزالة كتل من المعدة وأمتار من الأمعاء ، لايسمي أبدا ذلك المرض الذي يناور كالزئبق ، فيحتل مواقع جديدة كل يوم يقول زوجك أنك لاتعرفين . وهو يرى أن ذلك أفضل ، لأنك لن تتحملي الحقيقة . هل هذا آخر معروف تقدمينه له ؟ أن تسمحي له أن يصدق أنك لاتعرفين ؟ تلتزمين بقواعده حتى آخر لحظة ، فترحمينه من النهايات الدرامية، وخطب الوداع البليغة ؟

ثلاثة أيام ، وأمي لاتتصل . وفي اليوم العاشر لي في هذه الحجرة تطلبني . أسألها عنك ، فترجوني أن أهون على نفسي - أن أفكر في ضغطي العالي ، والطفل في أحشائي ، وابنتي . كل مايمكن عمله قد عمل ، والباقي كان قضاء مكتوبا .

تدخل المرضة ، ومعها الطبيب السوداني . ينحني ؛ ويدس يده تحت الغطاء ويخاطبني في أسى :

– لماذا ترفعين ضغطك هكذا ؟ سأحاول ألا أؤلمك .. نعم .. عنق الرحم يتسع . نريد أن نتعجل الولادة ، لأن ضغطك أعلى كثيرا من اللازم . والسبب هو قلقك ، وحزنك المستمر . ولم كل هذا الحزن ياسيدتي ؟ .

– هل الطفل بخير يادكتور؟ .

– أنت في الشهر الثامن : إن شاء الله سيكون الطفل بخير .

يمسح عنق الرحم ثلاث مرات في حركة دائرية عنيفة ، وتسرع المرضة لتضع صندوقها الأسود الصغير فوق بطني ، لتسترق السمع الى الجنين .

في ظهــر يدك ، رأيت الابرة تنغــرس في الوريد الأزرق . في يدي تلاشت التفاصيل كلها ، أنبوبة المحلول تختفي تحت تشابكات من الشريط اللاصق المدمم. أرقد ، وأرصد تحركات طفلي : لكمه خطافية لكبدي ، ثم رفساته الصغيرة المتلاحقة قبل أن يستدير لينام في تكور عنيف يلوي جسدي كله الى جانب واحد. لا يتحرك ، فأتخيله يلهث ، بحثا عن الهواء ، بينما الحبل الذي يربطنا يفشل في مده بالأوكسجين الذي يحتاجه .. لا .. بينما أفشل أنا في مده بالأوكسجين الذي يحتاجه . أرفع ذراعي بحرص من على حاجز السرير ، وأدلك جانب بطني برفق ، أحايله ، ليستيقظ ، ويركلني . أحاول ألا أفكر فيك ، وأن أبتعد بأفكاري الى اشياء أخرى ، فأحس بالدموع على وجهي بينما تتتابع في ذهني صور لا أستطيع تحملها : منذ خمس سنوات ، جلست في مطعم البابريكا مع زوجي – أيام كان يحبني – أمسك بيدي عبر الطاولة ورفعها ليقبلها وفي السيارة ، في صحراء المعادي ، تزود بالخير والأمل من بين ساقي . أريد أن أعود – أريد أن أعود الى سن الخامسة العب في الشمس على سجادة جدتي. أريد عيد ميلادي

التاسع عشر ، وحولى الأصدقاء ، وأنت - العروس الجديدة - تختالين فى الحفل ، وعلى ذراعك أزهار الزنبق والسوسن الأزرق . أريد أن أكون فى بلدى.

ومن النافذة نظرت ، فرأيت امرأة تقف وسط السيارات فى الشمس المحرقة : عباءتها السوداء تنتفخ حولها ، وهى تتشبث بها وتنحنى للأمام لتتقى الرياح المتربة :

فى سواد الليل دق جرس التليفون . أمد يدى فى الظلام ، وأحاول أن أهدىء قلبى . فكل دقة جافلة تزيد من الضغط على طفلى . ماذا يأتى به الهاتف الآن ؟

صوت رجل يهمس باسمى . يقول إنه معجب بى .. إنه أحد أطبائى وإنه يتمنى لى الخير . لو تكلم العربية لعرفته من لهجته ، ولكنه يكلمنى بالانجليزية ويقول:

«أعرف أنك لاتستطيعين مغادرة الفراش . هل تريدينى معك ؟ صدرك كبير جدا ويؤلمك أليس كذلك ؟ هل أمصه لك ليخف الألم ؟»

أقفل التليفون فيطلب مرة أخرى .. وأخرى . أرفع السماعة .. ولكن ماذا لو حدث شىء فى القاهرة ؟ ماذا لو احتاجتنى ابنتى ؟ أعيد السماعة إلى موضعها .

عندما حان الوقت حدث كل شىء فجأة كما حذرتنى جارتى - منقذتى . كيف أفاجأ هكذا وأنا المستعدة المنتظرة الحذرة ؟

فى اليوم الحادى عشر ، سألتنى ابنتى فى التليفون :

- الفراشة اللى اديتها لك - لسة بتحبيها ؟ .

- طبعا ياحبيبتى .

- وحتفضل عاجباكى على طول ؟ .

- ستعجبنى على طول .

- وعمرك ماحتكرهيها ابدا ؟ .

- كيف أكرهها يابنيتى ؟ سأحبها الى الأبد .

استدرت أغيد السماعة ، وأطمئن على الأنابيب فشعرت باندفاع مكتوم أحسسته كما لو كان بحرا بعيدا يضرب فى الصخر ، وحين وقعت السماعة من يدى كانت الأمواج المتلاحقة تضربنى وتقلبنى وتدفعنى الى القاع .

أما ماتلى ذلك ، فتبقى فى ذاكرتى منه صور وأحاسيس مبتورة ، أسنانى تصطك بشدة ، ويتخبط فى رأسى صدى رنينها . فوطة صغيرة تحشر فى فمى ثم تخرج بسرعة عندما بدأ القيء . معدتى فارغة ولكن شريط من العصارة الصفراء يخرج من حلقى فى دفعات مرة الطعم . البلل يندفع منى لا أعرف ان كان ماء أم دما . الخبطات المنتظمة خلف عينى ترج جسدى أصوات تكلمى . وأياد كثيرة تمسك بى ، وتجفف جبهتى ، وتمسح وجهى ، وتحملنى ، ثم حجرة ذات ضوء أبيض باهر مؤلم ، عطيل والسورى ذو العيون النارية وأشخاص آخرون مشغولون بى وحولى ، وطحن عنيف يدهك جسدى من الوسط الى الفخذين ، وابر تغرس فى ذراعى وظهرى وصوت فى أذنى يقول :

«زوجك على التليفون يقول لك إنه معك»

بين ساقى ، يقف مصارع ثيران يرتدى أوفرول وكمامة وغطاء رأس ، والضوء الأبيض الباهر يخرق طريقة الى خلال الألم والضجيج ، حتى يأتى ملاك فى نقاب أسود يخفضه ، ويبعده عن عينى وينحنى فوقى ، ولابد أنى قلت شيئا لأنى سمعت الملاك يجيب :

«تشجعى ياأختى . فلن أتركك»

أمسكت بيدى ، وبكاحل ساقى الممدوة ، وفى كل مرة كنت أغرق فى ذلك المد المخيف كنت أعود فأطفو لأسمع صوتها الهامس المطمئن يمسح على روحى آيات قرآنية لاتنتهى .

طفلى الشجاع ، كافح ببسالة ليخرج الى الحياة ، أخذوه الى حضانة كهربائية لم أستطع منافسة دفئها وصمتها وسكونها ، وتعبوا معى كثيرا ثلاث

ليال وثلاثة أيام . وأخيرا . عندما أعادوني الى حجرتي ذات الفراشة الملونة ، سلموني لفافة دافئة ناعمة . احتضنتها ، وفككت اللفائف المزهرة ، فرأيت الجسم الأسمر الدافيء الحي ، والحبل السرى المقصوص ، والرأس ذا الشعر الخفيف الناعم ورأيت رموشه السوداء الطويلة ، واصابعه المثنية ، وأظافره المنمنة ورأيت اسمي منقوشا بالقلم على سوار من البلاستيك حول معصمه .

ابنتي على التليفون تقول :

– بكرة حاجى آخدك .

– أعرف ، لاأطيق الأنتظار .

– خلصتى تصحيح الامتحانات ؟ .

– نعم .

– طيب نسافر بقى علشان بابا يشوف البيبى الجديد .

– نعم نعم ياحبيبتى .

فى الميريديان منذ كل تلك السنوات ، والنيل يلمع خلفك ، قلت لك :

«أنت متزوجة منذ تسع سنوات . هل نستطيع أن نثق فى العاطفة ؟ فى الحكايات الرومانسية ؟ هل من الحكمة أن نطمئن الى الحب ؟»

مرت سحابة خفيفة عبر وجهك ثم أجبت :

«الأمور تتغير الى حد ما .. نعم .. بالطبع ولكنى الآن أعتقد أن التعاطف .. نعم .. التعاطف والحنان ، والمودة . هذه الأحاسيس تبقى .. من الممكن أن تبقى.. بل ربما كانت هذه الأحاسيس هى الجزء الباقى من الحب زوجى ودود حنون ، ومن كلامك يبدو أن رجلك أيضا كذلك ؟

كان عندك كل شيء تمنيته : الثقة ، عظام الخد العالية ، مسرحية ناجحة ، وزيجة سعيدة – أو على الأقل سعيدة نسبيا . أذكرك فى ليلة الجمعة وباب منزلك

المضاء مفتوح على الحديقة وباب الحديقة مفتوح على الشارع . تتحركين بين ضيوفك ، وزوجك وأبنائك ، وأهلك وخدمك . تتكلمين وتضايفين ، وتعدين المشروبات والأطعمة ، وأراك تنسجين بخفة خيوطا دقيقة تربط حياة كل هؤلاء معا ياصديقتى الحبيبة .. كان كل شىء يبدو سهلا فى يدك ..

«زينة الحياة» (١٩٩٤) ظهرت بالإنجليزية فى مجلة جرانتا ، ثم فى مجموعة ساندبايبر . ترجمها الى العربية فاطمة موسى وصبحى الحديدى (ظهرت تحت اسم «زمار الرمل» فى مجلة الكاتبة ومجلة نصف الدنيا) .

«ميلودى» (١٩٨٨) ظهرت بالإنجليزية فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس ، ثم فى مجموعة ساندبايبر . ترجمها الى العربية أهداف سويف وأسامة فرحات .

«شى ميلو» (١٩٨٦) ظهرت بالإنجليزية فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس فى مجموعة ساندبايبر . ترجمها الى العربية أهداف سويف وأسامة فرحات . ظهرت بالفرنسية فى الأهرام ابدو .

«تحت التمرين» (١٩٨١) ظهرت بالإنجليزية فى مجموعة عائشة . ترجمها الى العربية أهداف سويف ومحمد الجندى.

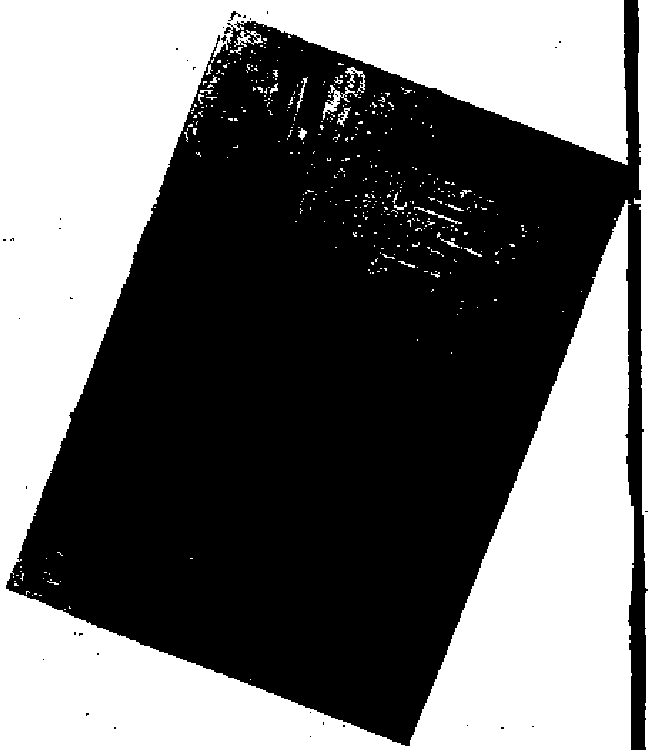
«السخان» (١٩٨٠) ظهرت بالانجليزية فى مجلة لندن ريفيو أوف بوكس ، ثم فى مجموعة ساندبايبر . ترجمها الى العربية أهداف سويف ومحمد الجندى . ظهرت فى مجلة الهلال .

«المولد» (١٩٨١) ظهرت بالانجليزية فى مجموعة عائشة ترجمها الى العربية أهداف سويف ومحمد الجندى .

«عودة» (١٩٨٠) ظهرت بالإنجليزية فى مجموعة عائشة ترجمها الى العربية أهداف سويف وفاطمة الحسين .

«أذكرك» (١٩٩٥) ظهرت بالانجليزية فى مجموعة ساندبايبر . ترجمها الى العربية أهداف سويف وهدى شكرى عياد . ظهرت فى مجلة صباح الخير .


أكتوبر ١٩٩٦ - الثمن ١٥٠ قرشاً
الهلال
أحمد بهاء الدين



روايات الهـــلال تقـــدم

مصـــــــرية

تأليف

فوزية أسعد

ترجمة

أحمد عثمان

تصدر : ١٥ ينـــاير ١٩٩٧

رقم الايداع ٩٦/١٣١٩٢
I. S. B. N
977-07-0512-8



أهداف سويف

- مولودة فى القاهرة عام ١٩٥٠
- تخرجت من قسم اللغة الانجليزية (كلية الآداب جامعة القاهرة) ، وحصلت على الدكتوراه فى الشعر الانجليزى من جامعة لانكستر البريطانية
- عملت بالتدريس فى جامعة القاهرة ، وجامعة الملك سعود ، وعملت مستشار تحرير لدار كاسل للنشر لمدة ست سنوات
- نشرت مجموعتها القصصية «عائشة» عام ١٩٨٣ فى لندن ، وترجمت الى الألمانية ، والهولندية ، ثم صدرت روايتها «فى عين الشمس» ١٩٩٢ فى لندن ، ونيويورك ، وفى عام ١٩٩٦ صدرت مجموعتها القصصية «زمار الرمل» والتى ترجمت الى الألمانية ، تكتب باللغتين العربية والإنجليزية ، ولها العديد من المقالات ، والقصص .

هذه الرواية

هناك حضور أنثوى مهيمن متعدد الأبعاد فى هذا الكتاب ، ليس الحضور المباشر ، الزاعق، الملىء بشعارات النزعة النسوية التى تلوكها بعض المنتسبات إليها ، على سبيل الموضة أو البحث عن الشهرة ، وإنما الحضور الذى لايبين عن نفسه إلا من خلال موازيات رمزية ، تنأى به عن الدفق المباشر للعواطف والتقديم الانفعالى للأفكار . يظهر ذلك على نحو خاص حين تبطىء براعة السرد من إيقاع الاحتفاء بهذا الحضور ، مسمرة العين على تفاصيل العناصر المتصاعدة للرؤية التى يتجسد بها ، من حيث هو حضور مزدوج ، قائم بالكتابة فى الكتابة ، وقائم بالكتابة خارج الكتابة ، جاذبة الوعى إلى كيانها الذاتى فى الوقت الذى تجذبه إلى موضوع احتجاجها الذى تسعى إلى نقضه ومجاوزته . ولذلك لاتقع هذه القصص فى شراك نقيض خطابها ، ولا تكتسب مقلوب صفات غريمها الذى يوقع غيرها فى شراكه ، خصوصا حين يتم نقضه بما لا يفلح إلا فى استحضاره .

جابر عصفور